جامعة عبد الرّحمان ميرة –بجاية-

كليّة الآداب و اللّغات

قسم اللّغة و الأدب العربي

عنوان المذكّرة

مقاربة ابستمولوجيّة لأفكار الجاحظ اللّغوية و أطروحات أندري مارتيني

مذكرة مقدّمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصّص: علوم اللّسان.

إعداد الطّالبتين:

- راجي لوبنة
- بهلولي إيمان

إشراف الأستاذ:

- خيار نور الدّين

السنة الجامعيّة: 2016/2015

قال الله تعالى:

« و قل اعملوا فسيرى الله عملكم و رسوله و المؤمنون و ستردّون إلى عالم الغيب و الشّهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون»

سورة التّوبة ألآية 104-105

شكر و عرفان

الحمد للّه الذي هدانا لهذا و ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله الذي ساعدنا على إنجاز هذه المذكّرة و أنار لنا دربنا.

نتوجّه بخالص الشّكر و التّقدير و الاحترام إلى الأستاذ الفاضل "خيار نور الدّين" الذي حرص على متابعة العمل منذ أن كان فكرة، إلى أن أصبح عملا مجسّدا، و لم يبخل علينا بتزويدنا بالمعلومات و المراجع، و على ما أسداه لنا من ملاحظات و توجيهات طيلة فترة انجاز هذا البحث، و نستمح منه في حالة شقائنا له.

كما نتقدّم بالشّكر لكل من قدّم لنا يد العون و ساهم في إنجاز هذا البحث عن قريب أو عن بعيد، و نخصّ بالذّكر الأستاذين "شمّون أرزقي" و " حوشي عايدة " اللذان أفادانا بالكتب القيّمة.

إهداء

أهدي هذا العمل إلى:

الوالدين الكريمين...

أخي و أخواتي ...

أساتذتي بقسم اللّغة و الأدب العربي...

طلبة الماستر2 دفعة:2016/2015...

زملائي و أصدقائي بجامعة عبد الرحمان ميرة- بجاية...

زملائي و أصدقائي بجامعة سطيف...

عمال مكتبة قسم اللّغة و الأدب العربي...

لوبنة...

إهداء

أهدي هذا العمل إلى:

الوالدين الكريمين...

أخي و أختي...

أساتذتي بقسم اللّغة و الأدب العربي...

طلبة الماستر دفعة:2016/2015...

زملائي و أصدقائي بجامعة عبد الرحمان ميرة- بجاية...

زملائي و أصدقائي بجامعة سطيف...

عمال مكتبة قسم اللّغة و الأدب العربي...

إيمان...

مقدّمة

مقدّمة:

إنّ البحث في التّراث العربي و مقاربته لما توصّلت إليه المناهج الحديثة، ليس بالأمر الهيّن، خصوصا مع كون كلا المجالين واسعا جِدّاً، و لهما من العظمة شأن كبير.

و قد ارتأينا في بحثنا هذا المقاربة بين شخصيّتين لهما إسهام في المجال اللّغوي، فانطلقنا من الرّأي القائم حول ثراء و زخم التّراث العربي القديم بالعديد من الآراء و الأفكار التي تضاهي حدّ التّطابق مع التّي يعرفها الفكر اللّساني الحديث، فالتّصوّر العلمي القائم في بحثنا هذا، إنّما هو محاولة قراءة واعيّة للتّراث الهام الذي خلّفه الجاحظ، هذا الرّائد من رواد الفكر و الأدب في العصر العبّاسي، و الذي يمكن اعتباره خلفيّة ابستيمولوجية حقيقيّة لما يطرحه الألسنيون الحداثيّون كأندري مارتيني، أحد روّاد اللّسانيّات الحديثة، رغم الفارق الزّمني الذي الهائل الذي يفصل هاتين الشّخصيّتين، إلاّ أننا من خلال تصفّحنا لأفكار كليهما نرى أنّها تتقارب جدّا.

و للخوض في هذه الأمور كان لابدّ لنا من مسح الغبار عن بعض تراث أبي عثمان بن عمرو، هذا العالم صاحب المكانة المرموقة التّي رفع نفسه إليها بقدرته العقليّة التّي مكّنته من إنتاج كم هائل من المُؤلّفات مختلفة المواضيع، وكذا مراجعة أفكار و أطروحات مارتيني، التّي ساهم بها في تأسيس اللّسانيات الوظيفيّة.

و الأمر الذي جعلنا نطرح قضيّة المقاربة بين الجاحظ و مارتيني في هذا البحث، إطّلاعنا على كتاب البيان و التّبيين فوجدنا أنّ معظم القضايا التّي عالجها الجاحظ ذات طابع لغوي بحت، بالإضافة إلى أنّ تفكيره في اللّغة يقترب و يضاهي أحيانا حدّ التّطابق مع أفكار العديد من العلماء الغربيّين الحداثيين خصوصا أفكار أندري مارتيني سواء اللّغويّة منها أو الصّوتيّة، و ربما الفارق بينهما النّضج العلمي و المنهجي ليس إلا.

لقد قامت دراستنا هذه من أجل إثبات ما توصّل إليه تفكير الجاحظ من تميّز، ذلك التّفكير البدائي إن صحّ القول الذي لم يكن ببعيد عن تفكير مارتيني، وهذا من خلال استقراء كتاب "البيان والتّبيين" للجاحظ و مقاربته بكتاب "مبادئ في اللّسانيات العامّة" لمارتيني، اللّذان يُعتبران مدوّنتين بحثنا هذا.

و استعنا في هذا بدراسات و مراجع، تحمل في طيّاتها بعض التّلميح إلى كل من فكر الجاحظ و مارتيني في اللّغة، نذكر منها:

- الحيوان للجاحظ.
- النّظريّات اللّسانيّة و البلاغيّة و الأدبيّة لمحمّد الصّغير بنّاني.
- الجاحظ و مجتمع عصره في بغداد.
- وظيفة الألسن و ديناميّتها لأندري مارتيني.
- محاضرات في اللّسانيات العامة لفرديناند دي سوسير.
- اللّسانيات النّشأة و التّطوّر لأحمد مومن.

و غيرها من المراجع و الدّوريات...

لم يكن اختيارنا للجاحظ و مارتيني لعقد مقاربة بينهما اختيارا عفويا، بل كان عن وعي و قصد، و ذلك لأسباب نوردها كالآتي:

- القيمة العلميّة و الأدبيّة التي يحملها البيان و التّبيين، التي تستحقّ الدّراسة، فالمتصفّح لها يجد مادّة علميّة جديرة بالدّراسة.

- الاستفادة من محاولة ربط الفكر اللّساني القديم بالحديث، و ذلك رغبة لاستنتاج مماثلات و مقاربات بين الشّخصيّتين.
- مكانة الجاحظ في التراث العربي.
- القيمة العلميّة التي تحتلّها أفكار و أطروحات مارتيني في الدّراسات اللّغويّة الحديثة.
- الرّغبة عن ما إذا كانت هناك إرهاصات لأفكار الجاحظ في دراسات مارتيني.

و عن المنهج الذي اعتمدناه في بحثنا هذا، رأينا أنّه نظرا لطبيعة هذا البحث من الضّرورة المزج بين منهجين هما: المنهج الوصفي التّحليلي، و المنهج المقارن.

فالمنهج الوصفي التّحليلي، من أكثر المناهج الحديثة أهمّية في دراسة اللّغة ووصفها.

أما المنهج المقارن، فلعقد مقارنة لبعض التّصوّرات و المفاهيم لدى الجاحظ و مقاربتها بما قدّمه مارتيني.

و عليه جاء بحثنا تحت عنوان:

مقاربة ابستيمولوجية لأفكار الجاحظ اللّغويّة و أطروحات أندري مارتيني.

و جاء البحث في ثلاث فصول، تستبقها مقدّمة و انتهى بعقد مقاربة بين الجاحظ و مارتيني و خاتمة.

و قد عرضنا الفصول كالتّالي:

الفصل الأوّل الموسوم: بالجاحظ و بعض المعارف و الأفكار اللّغويّة، يشمل ثلاثة مباحث، الأوّل منها ضمّ حياة الجاحظ و مؤلّفاته. و الثاني ضمّ مذهبه و مجمل آرائه، أما الثالث فقد تتبّعنا فيه مواضع الأفكار و المفاهيم اللّغويّة عند الجاحظ في كتاب البيان و التّبيين.

الفصل الثاني الموسوم بأهمّ المبادئ اللّسانيّة عند أندري مارتيني، فقسّمناه هو الآخر إلى ثلاث مباحث، ضمّ المبحث الأوّل و مفهومي اللغة و الوظيفة عنده، أما المبحث الثاني فقد اشتمل مبادئ الدّراسة الوظيفيّة عنده. في حين ضمّ المبحث الثالث مبادئ التّحليل الوظيفي لديه.

أما الفصل الثالث، فقد عنوناه بالدّرس الصّوتي عند كلّ من الجاحظ و مارتيني، و قد اشتمل على مبحثين الأوّل خصّ الدّرس الصّوتي عند الجاحظ، و الثاني خصّ الدّراسة الفونولوجيّة عند مارتيني.

و ختمنا بعقد مقاربة للجاحظ، مستخرجين فيها أوجه التّشابه و الاختلاف بينهما.

أمّا الحديث عن الصّعوبات التي اعترضتنا في هذا البحث نذكر، قصر الوقت و اضطرارنا للتّنقّل للحصول على بعض المراجع المهمّة للبحث، و كذا عمليّة القراءة المتقصّية التي تعتبر عملا مضنيا، الهدف وراءها الوصول إلى شيء ما، و أحسن مثال عن هذا نصوص الجاحظ التي يعتريها الغموض في بعض الأحيان، و يصعب فكّ شفراتها.

الفصل الأوّل

الجاحظ و بعض الأفكار و المفاهيم اللّغويّة

إنّ المعروف عن الأدباء العرب في القديم أنّهم قد برعوا في جميع مجالات الحياة الأدبيّة و الفكريّة، فتجدهم يشتغلون في اللّغة و يبرعون في الرّياضيّات و علو الفلك و الحساب و هذا بفضل التّوسع اللاّمحدود لدائرة المعارف لديهم، ويعتبر الجاحظ من العلماء العرب القدماء الذين خلّدوا اسمهم عبر التّاريخ، و تركوا أثرهم في دراسة اللّغة و البلاغة و الأصوات و غيرها من مجالات الدّراسات... و يعتبر كتابه البيان و التّبيين إرثا عظيما حافلا بالدّراسات و الأفكار و المفاهيم اللّغويّة، و فيما يلي سنحاول عرض الأفكار اللّغويّة للجاحظ.

المبحث الأول: حياة الجاحظ و مؤلّفاته.

1- نبذة عن حياة الجاحظ :

يجزم أن الجاحظ من أصل عربي صريح، على حد قول شارل بيلا[1]، أبو عثمان عمرو بن محبوب الكناني اللّيثي الشهير بالجاحظ[2] معلم الحضارة و الفكر في العصر العباسي، و هو المفكر و العالم و الأديب النّاقد، و البلاغي اللّساني، واحد من أعلام العصر العباسي، إذ شهد في شبابه قوّة الدولة العباسية و زهوها، و شهد في شيخوخته ضعف الدولة و ضمورها، اشتهر و ذاع صيته بين العامة و الخاصة.

ولد أبو عثمان في البصرة حوالي 776 (160ه)، و مات فيها سنة 869 (255ه). و قد اختلفت آراء المؤرخين بصدد تاريخي ولادته و وفاته إلا أن معظمهم اتفق على ما ذكرناه[3]. لقب بالجاحظ لجحوظ عينيه و نتوئهما مما جعله دميما. كما اختلف أيضا في قضية نسبه، فجعله البعض كنانيّا صليبيا، و جعله البعض الأخر كنانيّا بالولاء، و ليس هناك من إلا أن جميع من عاصره و عايشه يجمع على نسب الجاحظ العربي.

قضى أكثر عمره بالبصرة، و هي آنذاك مهد العلم و منتدى الأدب، نشأ فيها مكافحا الفقر، لكن هذا الأخير لم يثنه عن طلب العلم، فكان دائم التردد على الكتاب، يكتري دكاكين الوراقين، يقرأ الكتب و يدرسها في مجالس العلماء و حلقاتهم في مسجد البصرة و ما جاورها. و كان كثير التّرحال طبا للعلم يسأل أهل العلم و المعرفة، و يستخدم العقل و المنطق في سبيل الحقيقة، فتكونت لديه ثقافة مكنته من صحبة القلم و الورقة، فخاض ميدان التأليف في العلوم و المعارف و الفنون المختلفة.

إن هذه النشأة و الثقافة المتنوعة، و التّلمذة على أيدي أساتذة شهد لهم بالعلم و المعرفة أمثال: أبي عبيدة الأنصاري، و الأصمعي... أسهمت في صوغ الحس اللغوي فتكونت لديه حصيلة لغوية من الألفاظ و العبارات جمعها في أثناء عمله في بيع السّمك و الخبز ممّا أتاح له معايشة المجتمع في طبقاته المختلفة.

---

[1]- شارل بيلا: الجاحظ في البصرة و بغداد و سمرّاء، تر إبراهيم الكيلاني، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، سنة 1985، ص96.

[2]- خير الدين الزّركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط9، ج5، ص74.

[3]- جميل جبر: الجاحظ و مجتمع عصره في بغداد، دار صادر، بيروت، ص7.

عد الجاحظ كاتب موسوعيا، أبدع في الكتب التي كانت و مازالت تشغل مكانة مرموقة بين الكتب الأدبية و العلمية، و بلغت مؤلفاته أكثر من مئتي كتاب في شتى المعارف و العلوم. و نذكر منها:

- كتاب الحيوان (في سبعة أجزاء)[1]
- كتاب التربيع و التدوير[2]
- سائر الرسائل[3]
- الوساطة

و يعد كتابه البيان و التّبيين من أهم الكتب الأدبية التي خلّفها لنا، فهو كتاب من كتب أربعة، عدّت أصول الأدب، ألّفه في آخر حياته فجاء خلاصة لآراء تمخّضت منذ زمن طويل حكمتها التجربة و الممارسة.

2- كتاب البيان و التبيين:

الكتاب كما سبق و ذكرنا آخر ما ألفه الجاحظ في حياته، فهو يعتبر عصارة تجارب كوّنت ثقافة الجاحظ، سواء كانت هذه التجارب فكرية و أدبية أو اجتماعية أو دينية أو سياسية. و هذا كان بتأثير العناصر المختلفة للثّقافة البصرية آنذاك، و حتى التّأثيرات الوافدة على البصرة، و كان لها دور فعال في التكوين الثقافي و العلمي، مما جعل منه أديبا مبدعا و ناقدا بارعا.

2-1- محتواه:

قصد الجاحظ في كتابه البيان و التبيين التعريف بالبيان و البلاغة و الخطابة فذكر بعض محاسنها و مساوئها، و شرح فنونها و أنواعها فبدأ بالاستعاذة من العيِّ ثم تطرق إلى خصاصة اللّسان و عاب التّشدق و التّقصير، و انتقل بعد ذلك إلى الكشف عن الاختلاف في لغة العرب في استعمال الألفاظ[4]. حتى إذا اقترب من الخطابة تحدّث عن عيوب اللّسان مشيرا في ذلك إلى أشهر الخطب و الخطباء، سواء من أشتهر منهم بسلامة النطق أو بعيب فيه مثل: واصل بن عطاء، موسى عليه السلام[5]، و أثناء ذلك كله يتعرض إلى تعريف الخطابة. ثم يشير في حديث آخر إلى البلاغة، فيبين علاقة البلاغة بالشعر و اللّسان و في الصّمت و في الكلام المُسجّع، و كذا قضية النّزاع بين اللّفظ و المعنى مستشهدا بأدلة من القران الكريم و الحديث النّبوي الشّريف و الشّعر العربي القديم و النّثر، و بهذا ينتهي الجزء الأول.

---

[1]- جميل جبر: الجاحظ و مجتمع عصره في بغداد، ص 14.
[2]- المرجع نفسه، ص15
[3]- المرجع نفسه، ص 17
[4]- الجاحظ: البيان و التبيين، تح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط7، 1998، ص11-12-13.
[5]- المصدر نفسه، ص7 و14.

و يستهل الجزء الثاني بالرد على الشّعوبية في طعنهم على خطباء العرب، مدافعا عن فصاحتهم، كما تطرّق إلى الكلام عن الزهد و النّساك و عن كلامهم و مواعظهم، كما أن الكتاب لم يخلُ من نوادر الجاحظ.

2-2- لغته و أسلوب الجاحظ فيه:

أ- لغته:

يرى محمد الصغير بنّاني أن الجاحظ يميل في البيان و التبيين أحيانا إلى الرّمزية بل إلى ضرب من التّورية حيث يتجاذب اللّفظ معنيان، معنى ظاهر حقيقي غير مقصود في النّص لكنّه يجوز إيراده على ذلك الوجه، و معنى خفيّ يحيل إلى لغة خاصّة يبدو أنها كانت متداولة بين الأواسط الكلامية[1]. فالجاحظ ينظر إلى شيئين في اختيار ألفاظه: الدّقة و الموسيقى. فقد شاعت العذوبة و السهولة في كلامه رغم عدم خلوّها من بعض الغموض، كما يَعمد أحيانا إلى ألفاظ أعجمية و عامية مراعاة لمقتضى الحال[2]، و على حد تعبير أحمد حساني يعني باللّفظ المختار العلامة اللّسانية العرفية المتواضع عليها في المجتمع اللّغوي[3].

و خلاصة لكلّ هذا فالجاحظ مصوّر بارع يصوّر جملة حسنة المعنى و جميلة التأليف.

ب- أسلوبه:

يرى الكثير أن أدب و بلاغة الجاحظ يعتريها بعض الغموض و التعقيد، و يرجع هذا حسب رأي محمد الصغير بنّابي إلى سوء التّفاهم الحاصل بينه و بين ناقديه و هذا الأمر راجع بالدّرجة الأولى إلى الأسلوب الذي اختاره الجاحظ للتّعبير عن أفكاره، و الذي يتّسم ببعض الإبهام أو نوع من الازدواج المعنوي على سبيل التورية[4].

فالجاحظ كان يزاوج بين معنيين، حيث لا تتجلى هذه المزاوجة في الصّياغة اللّفظية فحسب، بل حتىّ في تنشِئة المعاني و تحريرها أيضا فقد استمت أسلوبه بوجهين: وجه جعله للعامة، ووجه للخاصة من النّاس، و هذا دليل على الاقتدار. فأسلوب الجاحظ يتميّز بالبعد عن التصنّع و الغموض، فقد كان يرمي إلى الإفهام و الوضوح و الإبانة، و يذهب إلى استعمال الألفاظ التي تظهر الحقيقة و تقربها إلى الأذهان، و في هذا الصدد يقول الجاحظ: « أحسن الكلام قليله يُغنيك عن كثيره، و معناه في ظاهر لفظه، و كأن الله عزّ و جل قد ألبسه من الجلالة و غشاه من نور الحكمة على حساب نية صاحبه، و تقوى قائله. فإذا كان المعنى شريفا، و اللّفظ بليغا، و كان صاحبه صحيح الطبع بعيدا

---

[1]- محمّد الصّغير بنّاني: النّظريات اللّسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التّبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1994،ص63.

[2]- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت لبنان، ص58.

[3]- أحمد حساني: مباحث في اللّسانيات، ص140.

[4]- محمّد الصغير بنّاني: النظريات اللّسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين، ص62.

عن الاستكراه، منزّها عن الاختلال مصونا عن التّكلف صنع في القلوب صنيع الغيث في التّربة الكريمة.»[1]

فهو دائما يعتني بصياغته، فهي تارة ألفاظ جزلة رصينة، و تارة أخرى ألفاظ عذبة، و لكل لفظة موضعها من الكلام. و هكذا نلتمس في مصنّفه أسلوب التنوّع بين الأسلوب العلمي المجرّد و الاسترسال في الاستطراد و الاستشهاد و الجد[2]، كما يعتمد إلى الهزل في مواطن الجد. و لكنه مع ذلك لم ينحدر إلى اللّفظ المبتذل، و هكذا جاءت ألفاظه وسطا بين السّوقي السّاقط و الغريب الوحشي[3]. و قد عبر عن هذا الأسلوب بقوله: « و كما لا ينبغي أن يكون اللّفظ عاميا و ساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من النّاس كما يفهم السوقي رطانة السوقي.»[4]

أما جملته فهي غالبا وجيزة أنيقة، قويّة الحبك، أحيانا يغلب عليها القِصر و الرشاقة و الوضوح و التفصيل، و أحيانا أخرى تتّسع لما تتداخل الجمل المشاركة بينها منصبة على الغرض الواحد دون أن يعتريها غموض أو تقطع[5].

قصّة ثالثة و رابعة...، ثم تعود للقصّة الرّئيسية. فالجاحظ يتناول موضوعا ثم يتركه ليتناول غيره، ثم يعود للموضوع الأول، و قد يتركه ثانية قبل إكماله و ينتقل إلى موضوع الأول، و قد يتركه ثانية قبل إكماله و ينتقل إلى موضوع جديد. و قد كان الجاحظ واعيا تمام الوعي بنوع طريقته في الكتابة مؤمنا بجداوتها، فمثلا ن و في الأخير لابد من ذكر أهم سمة تميّز بها أسلوب الجاحظ في الكتابة، فهذه السّمة في أسلوبه التّألفي هي ظاهرة الاستطراد، و قد شبّه بعضهم أسلوب الجاحظ بأسلوب قصص ألف ليلة و ليلة المتداخلة، إنّ شهرزاد تحكي لشهريار قصة، ثمّ أحد أبطال هذه القصّة قصّة فرعية، و تتخلّل القصّة الفرعيّة جده في البيان و التّبيين قد تكلم عن البيان بعد حديث طويل عن العجز و العيّ، و حال قريش في بلاغة المنطق، فمهد له بقوله: « كان في الحقّ أن يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب، و لكن أخرناه لبعض التدبير.»[6]

3-تاريخ و دوافع تأليف البيان و التّبيين:

3-1- تاريخ تأليف البيان و التّبيين:

يقول عبد السّلام محمّد هارون محقّق الكتاب أنّ الجاحظ ألّفه في أخريات حياته حيث علة به السّن و قعد به المرَض، و ذكر أنه ألّفه بعد كتاب الحيوان، حيث عثر على نص قاطع في البيان و التّبيين يدلّ على ذلك و هو قوله: «كانت العادة في

[1]- البيان و التّبيين، ج1، ص83.
[2]- الجامع في تاريخ الأدب، ص582-583.
[3]- علي بو ملحم: المناحي الفلسفيّة عند الجاحظ، دار الطليعة للطباعة و النّشر، بيروت، ص312.
[4]- البيان و التّبيين، ج1، ص144.
[5]- غريب جورج: الجاحظ دراسة عامة، دار الثقافة، بيروت لبنان، 1998، ص114.
[6]- البيان و التّبيين، ج1، ص36.

كتاب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقتطفات الأعراب، و نوادر الأشعار لما ذكرت عجبك بذلك أحببت أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أفر إن شاء الله.»[1]

و يروي ياقوت على لسان الجاحظ قوله: «أهديت الحيوان إلى محمّد بن عبد الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار، و أهديت كتاب البيان و التّبيين إلى ابن داوود فأعطاني خمسة آلاف دينار.»[2] و بعد قتل ابن الزيات جيء بالجاحظ مقيّدا إلى مجلس ابن أبي داوود فجرت بينه و بين القاضي محاورة انتصر فيها الجاحظ و كان من عاقبتها أن رضي عنه ابن أبي داوود و أجازه و قرّبه إلى نفسه و هذا أكثر ما يبيّن أنّ كتاب البيان و التّبيين لم يظهر إلا بعد سنة (233ه) و هي السّنة التي قتل فيها ابن الزيّات[3].

3-1- دوافع التّأليف:

أسهمت في ظهور البيان و التّبيين عدّة أسباب و دوافع جعلت منه منبعا و مصدرا للعديد من النظريات و الدراسات خاصة في الميدان البلاغي و اللّساني و الدّلالي، إلا أننا سنركز على دافعين أساسيّين جعلا الجاحظ يقدم على تأليف هذا الكتاب. و هما كالتالي:

الدافع الأول:

إنّ الحياة العقلية المعقدة التّي فُرِضت على البيئات الإسلامية قد أوجدت فنّ المناظرة و الخطابة و هما اللّونان الأدبيان اللّذان كانا يمارسان في بيئة البصرة، حيث انتشرت الخطابة و الجدل و المناظرات بين طوائف الملل و النّحل المختلفة. كما أنّ أصحاب الكلام أخذوا على عاتقهم أن يتصدّوا لهؤلاء جميعا، فقد حرصوا على إتقان هذين اللّونين، حيث جعلوهما صناعة لها أصولها و قواعدها، و هذه الأصول و القواعد تلتمس عن طريق تمثل أسرار اللّغة العربية، و إدراك مواقع الجمال و القوّة فيها، و التّمرس بالأسلوب المنطقي في التّسلسل بالفكرة للوصول بها إلى غايتها بقصد إفهام الخصم، و كذا معرفة الشّروط التّي ينبغي أن تتوافر في الخطب شكلا و موضوعا[4].

الدافع الثاني:

هو الرّد على الشّعوبيّة* التّي كانت تعيب على العرب خطبهم و تقاليدهم في إلقاء تلك الخطب، و منها الإمساك بالعصيّ، و قد نصّ الجاحظ في أكثر من موضع من الكتاب على أنّه نصّب نفسه مدافعا عن فصاحة العرب داحضا بذلك اتهامات

---

[1]- البيان و التّبيين، ج1، ص

[2]- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، دار الفكر للطباعة و النّشر، ط1980، ج6، ص116.

[3]- مقدّمة البيان و التّبيين، ج1، ص16.

[4]- إسماعيل عز الدّين: المصادر الأدبية و اللّغوية في التّراث العربي، دار النّهضة العربية للطّباعة و النّشر، ص142.

*لفظ الشّعوبيّة: لغة مأخوذ من الشّعوب: ج شعب، و هو جيل من النّاس أوسع من القبيلة و أشمل. و مصطلح الشّعوبية يعني: تعصّب كل شعب لقومه و حضارته كالموالي، الفرس، الهنود و الروم. هذه الشّعوب ضمّها المجتمع العبّاسي، و بما أنّ العرب يمثّلون الأمّة الحاكمة، فقد اتّجهت الشّعوبية ضدّهم، لتثبت لعرب هويّتهم و وجودهم و يبيّن لهم أنّهم ليسوا أفضل من سائر الأمم حضارة و مزايا.(ينظر المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ص25.)

الشعوبيّين[1]، فقد قال في فصل العصا في الجزء الثالث من الكتاب: « و نبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشّعوبيّة، و ما يتحلّى باسم التّسوية و بمطاعنهم على خطباء العرب: بأخذ المِخصرة عند مناقلة الكلام، و مجالسة الخصوم بالموزون و المقفى و المنثور الذي لم يُقَفَ.»[2]

4- مفهوم البيان و التّبيين عند الجاحظ:

4-1- البيان:

يقول الجاحظ في كتابه البيان و التّبيين: « و البيان اسم جامع لكلّ شيء، كشف لك قناع المعنى، و هتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، و يهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، و من أي جنس كان الدّليل؛ لأنّ مدار الأمر و الغاية التّي إليها يجري القائل و السّامع، إنّما هو الفهم و الإفهام؛ فبأيّ شيء بلغت الإفهام و أوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع.»[3]

و البيان في هذا التّعريف جاء عامّا، فالقصد منه: الفهم و الإفهام و يستدلّ على ذلك بقوله تعالى: « و ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم »[4] فكل رسول أرسل إلى قومه بلغتهم من أجل أن يفهمهم ما أُوحي و أن يفهموا عنه، فهذا فيه وجه من أوجه البيان و مدار الأمر و الغاية التي يجري إليها القارئ و السّامع إنّما هو الفهم و الإفهام فبقدر ما أوضحت فهو البيان[5] .

و هناك إبهام آخر قد يوقعنا فيه قوله « فبأي شيء بلغت الإفهام.» فنعتقد أنّ البيان يقصد به أيضا التّبليغ و التوصيل. فالمتكلم في البيان تنتهي مهمّته في التعبير و لا يتجاوزه، و على السّامع أن ينتقل ليلتمس المعنى و يفضي إلى حقيقته. و عبارة يهجم على محصوله التّي يستعملها الجاحظ عادة عند كلامه عن البيان دليل قاطع على ذلك. فالبيان لا يتضمّن توصيلا بمعناه اللّساني اليوم، و هذا ما يتفق و الاتجاه العام المنصوص عليه في القرآن. فمثلا قوله تعالى: « إنّك لا تهدي من أحببت و لكن الله يهدي من يشاء و هو أعلم بالمهتدين »[6]، هذه الآية تدل على أنّ دور المتكلّم ينتهي في التعبير عن الحقائق و يجب أن لا يتجاوزه حتّى لا يؤثّر في السّامع، أو يحمل إليه من معانيه الخاصّة التّي لا دخل لها في الحقائق البيانية[7].

و من خلال هذه التعريفات التي ذكرها الجاحظ للبيان يمكن القول بأنّه اشترط للبيان شرطين أساسيّين كما بيّنهما محمد الصغير بناني في كتابه النظريات اللّسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ:

---

[1]- إسماعيل عز الدين: المصادر الأدبيّة و اللّغويّة في التّراث العربي، ص141.
[2]- البيان و التّبيين، ج3، ص05.
[3]- المصدر نفسه، ج1، ص76.
[4]- إبراهيم، الآية 04.
[5]- البيان و التّبيين، ج1، ص76.
[6]- القصص: الآية 55.
[7]- محمّد الصّغير بناني: النّظريات اللّسانية و البلاغيّة و الأدبية عند الجاحظ، ص201.

- إدراك الحسن و الروعة مع ملازمة الواقع و الحقيقة دون الاعتماد على المراء (المجاز)، لأنّ غاية البيان هي الفهم و الإفهام دون استخدام أي صعوبة في توصيل المعنى للسّامع..
- التأكيد على الصّدق و الإخبار عن الحقيقة و إحراز مجانية لفظيّة في البيان... و الفرق بين المراء و البيان يمكن التماسه في هذا الخبر الذي يجد الجاحظ فيه نوعا من الغبطة في ترداده: و سأل رسول الله صلّى الله عليه و سلّم عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر. فقال: «إنّه لمانع لحوزته مطاع في أذنيه»، فقال الزبرقان:« إنّه زمر المروءة ضيق العطن، لئيم الخال»، فنظر النّبي صلّى الله عليه و سلّم في عينيه، فقال: «يا رسول الله رضيت فقلت أحسن ما عملت، و غضبت فقلت أقبح ما عملت، و ما كذبت في الأولى و لقد صدقت في الآخرة»، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلّم « إنّما من البيان لسحرا »[1]

و يقول في سياقه حديثه عن المعاني « و الدلالة الظّاهرة على المعنى الخفيّ هو البيان الذي سمعت الله عز و جل يمدحه، و يدعو إليه و يحثّ عليه، بذلك نطق القرآن، و بذلك تفاخرت العرب، و تفاضلت أصناف العجم.»[2]

كما أطلق الجاحظ مصطلح المنطق كمرادف للبيان و هو يعني الإفصاح عن ما في الضّمير من المعاني بواسطة الألفاظ و غيرها من الدّلالات. حيث يقول في هذا الصدد: " و قلنا في الحجة إلى المنطق، و كيف صار أعم نفعا و صار هو المشتق منه و المحمول عليه و كيف جعلنا دلالة الأسماء الصامتة نطقا و البرهان الذي في الأجرام الجامدة بيانا"

4-2- التّبيين:

إنّ مفهوم التّبيين يقترب من مفهوم البيان، إلا أنّه يختلف عنه بتضعيف عين الفعل أو المصدر فينتقل المعنى من البيان إلى حسن البيان، و بالتّالي نجد في مفهوم التّبيين اهتمام المتكلم بالمخاطَب و توجيه الكلام إليه، فالغاية من تضعيف العين كثيرا ما يُؤتى بها للتّعدية فهناك فرق بين: بين و بيّن، كما أنّه يأتي بها للتّكثير، و هكذا يكون مرادفا للبيان مع ميزة تميّزه عنه هي التّأكيد أو التوسيع في المعنى، إلا أنّ حسن البيان يقتضي إعدادا خاصا و تعليما و رياضة، فإنّه أكثر ما يلاحظ عند المعلّمين[3].

و إذا لكي ندرك جيّدا مفهوم التّبيين علينا أن ندرسه من خلال مفهومين آخرين هما الفهم و الإفهام، يقول الجاحظ "بعد أن ذكر أنّ مدار الأمر على البيان و

[1]- البيان و التّبيين، ج1، ص349.
[2]- البيان و التّبيين، ج1، ص75.
[3]- محمد الصغير بنّاني: النّظريات اللّسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ، ص207.

التّبيين، و المفهم لك و المتفهم عنك شريكان في الفضل، إلا أنّ المفهم أفضل من المتفهم و كذلك المعلّم و المتعلّم."[1]

و من خلال ما تقدم نستنتج أنّ الجاحظ في تصنيفه للبيان كان على شكل الفهم، و التّبيين على شكل الإفهام، و تتضح هنا على الشكل الآتي:

الإفـــهـا م	الـفـــهم
المُتكلم	المخاطَب
المُفهم لك	المتفهِّم عنك
المُفهم	المُتفَهم
المُعلم	المُتعلَّم
القائل	السّامع
سوء الإفهام	سوء الفهم
النّاطق	السّامع
الإفهام إذا حدّثت	التّفهّم إذا حدّثت
التّبيين	البيان

يبدو للوهلة الأولى أنّ هذا المخطّط فيه تناقض لكون أنّ للبيان علاقة بين المُتكلم و المُخاطَب، لكن هذا التناقض سيزول إذا أخذنا بعين الاعتبار الطرف الثّالث المعني في كل أداء كلامي[2]، و هو الدّليل لأنّ المتكلّم بالنّسبة لهذا الأخير هو وضعية مُخاطِب، و هو ما يوضّحه الجاحظ في حديث آخر، يقول فيه: «... و إنّما مدار الأمور الغاية الّتي يجري إليها الفهم ثمّ الإفهام و الطّلب و التّثبّت»[3] فالفهم هو الطلب، طلب المتكلّم المعني من الدّليل (العلامة)، و طلب المخاطب المني من المتكلّم، و الإفهام هو التثبّت : إفهام المتكلم و المخاطب و التثبت في إيصال المعنى إليه[4]، فمدار البيان بالنسبة لكل من المتكلم و السّامع ينطلق فيه من اللّفظ نحو المعنى هو الغاية التي يسمو إليها كلا من المتكلم و السّامع[5].

أما فيما يخصّ التّبيين فلا يكون إلا من المتكلم و يتجلى في صورة لفظ(تلفظ) فمع اللّفظ تكون عملية النّطق و كيفية صدور الصوت و ما يستتبع هذا من حركات اللّسان و

[1]- البيان و التّبيين، ج1، ص11-12.
[2]محمّد الصغير بنّاني: النّظريات اللّسانية و البلاغيّة و الأدبية، ص212.
[3]- البيان و التّبيين، ج2، ص39.
[4]- محمّد الصغير بنّاني: النّظريات اللّسانية و البلاغيّة و الأدبية، ص213.
[5]- المرجع نفسه، ص213.

الشّفتين[1]. فالتّلفظ لا يكون إلا من المتكلم و بالتّالي صدور الخطاب أو الرسالة التّي يرسلها المتكلم و بلاغة السّامع[2].

و هكذا ينحصر البيان في المعنى و التّبيين في اللّفظ، و يكون عنوان الكتاب البيان و التّبيين مقصودا به اللّفظ و المعنى.

[1]- إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، 1997، ص38.
[2]- محمّد الصغير بنّاني: النّظريات اللّسانية و البلاغيّة و الأدبية، ص 214.

المبحث الثاني: مذهب الجاحظ و مجمل آرائه.

1- الفكر الاعتزالي:

مفهوم الاعتزال:

شكّل تيار الاعتزال نقطة تحوّل كبرى في الفكر الإسلامي على مستوى التوجه العقلي للأمّة، فكان ذا تأثير كبير، تغلغل في جميع الميادين و امتد إلى كل الأمصار، بل و تواصل عبر أزمنة الأمة المختلفة.

- **لغة:**

جاء في لسان العرب: « عزل الشَّيءَ، يعزِلُهُ عزلاً، و عزله فاعتزلَ و انعزلَ و تعزَّلَ: نحّاه جانبا فتنحّى. و قوله تعالى:«إنّهم من السمع لمعزولون»[1]؛ معناه أنهم لمّا رُموا بالنّجوم، مُنِعوا من السّمع. و اعتزل الشّيء و تعزّله... تنحّى عنه. و قوله تعالى:«إن لم تُؤمِنُوا لي فاعتزلون»[2]؛ أراد إن لم تُؤمنوا بي، فلا تكونوا عليّ و لا معي[3].

فابن منظور يُؤكِّد دلالة التّنحية.

و العلامة الجوهري يقو في الصِّحاح: «... و الأعزل الذي لا سلاح معه. و قوم عُزْلٌ و عِزلانٌ و عُزَّلٌ بالتّشديد... و الأعزل سحاب لا مطر فيه. و عزله أي أفرزه،... و عزه عن العمل؛ أي نحّاه عنه فعزل.»[4]فيضيف إلى دلالة التّنحية، دلالة الفرز. هذه الأخيرة التي تحيل على الأولى؛ لأنّ الفرز يهدف إلى تنحية شيءٍ عند شيءٍ آخر، كما أنّ التّنحية لا تتمُّ عشوائيا، بل تفرض مبدئيا عمليّة فرز مسبقة.

و نلاحظ أنّ الكلمتين (تنحية و فرز)، تنتميان إلى حقل دلالي واحد يمكن تسميته بحقل التّميز، فهل كان تيار الاعتزال كذلك متميّزا. هذا ما سنعرفه باستعراض مفهوم الاعتزال اصطلاحا.

- **اصطلاحا:**

سنحاول من خلال التعريف الاصطلاحي للاعتزال التوفيق بين معناه الاصطلاحي، و دلالته اللّغويّة. و في هذا الصّدد يقول ابن منظور:« و قوم من القدريّة يلقّبون المعتزلة؛ زعموا اعتزلوا فِئتي الضلالة عندهم، يعنون أهل السّنّة و الجماعة و الخوارج، الذين يستعرضون النّاس قتلا.»[5]، فأولئك القوم امتازوا و تميّزوا بالحياد اثر وقوع النّزاع و القتل.

و يؤكّد أحمد أمين هذا الحياد قائلا: «إنّه بالرّجوع إلى كثير من كتب التّاريخ نرى أنّ كلمة اعتزال و معتزلة و اعتزال استعملت كثيرا في صدر الإسلام في معنى خاص

---

[1]- سورة الشعراء، الآية 212.
[2]- سورة الدخان، الآية 21.
[3]- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت لبنان، ط3، 1994، باب اللام، ص440.
[4]- الجوهري: الصِّحاح في اللّغة و العلوم، تقديم عبد الله العلايلي، دار الحضانة العربية، بيروت، ط1، 1974، ج2، ص110.
[5]- ابن منظور: لسان العرب، باب اللام، ص440.

هو أن يرى الرّجل فئتين متقاتلتين أو متنازعتين ثم هو لا يقتنع برأي إحداهما، و لا يريد أن يدخل في القتال و النّزاع بينهما لأنّه لم يكوّن له رأيا، أو رأى كليهما غير محق، من ذلك ما نراه من إطلاق المؤرِّخين هذه الكلمة كثيرا على الطائفة التّي لم تشترك في القتال بين علي و عائشة في حرب الجمل، و على الذّين لم يدخلوا في النّزاع بين علي و معاوية.»[1]؛ فالاعتزال يمثل موقفا حياديا، متميزا ناتجا عن نظرة عقلية متفحصة.

و المعتزلة اتّخذوا موقفا وسطيا من النّزاع الذي دار حول مرتكب الكبيرة قائلين: « بأنّ مرتكب الكبيرة في الدنيا في المنزلة بين المنزلتين، لا مؤمن و لا كافر، و في الآخرة مخلّدون في النّار.»[2]، لأنّهم يقولون بحرّية الإنسان في خلق أفعاله و مسؤوليّته عليها أمام الإرادة الإلهية العادلة، و هذا الانحياز للعقل عند المعتزلة يتناسب مع العدل الإلهي.»[3]

و بذلك يكون التّميّز و التّمايز عن طرفين متناقضين، إثر تركيز كبير على العقل، و تقليب الأمور مرات عديدة قبل الانحياز إلى أيّ طرف، و استبعادا للميولات العاطفيّة. فتتوافق إذّاك الدّلالة الاصطلاحيّة مع الدلالة اللّغويّة، و تلتقيان في نقطة تجمعهما هي العقل؛ حيث إنّ تنحية الشّيء و فرزه في موقف معيّن متميّز بالموضوعيّة لا يمكن تحققها إلا بإعمال العقل.

2.الاعتزاليّة الجاحظيّة:

يعتبر الجاحظ أحد المنتمين إلى الفكر الاعتزالي بكل ما يعنيه هذا الفكر من اعتماد على النظر العقلي، و التجريد الأصولي، و هو ما يجعل من فكره اللّغوي مُكتَسِبا لبعد وُثُوقي، خاصة و أنّه سيفاضل أو يُقارب أو يُماثل بمنجز ينتمي إلى فكر حداثي متبعه التّقصّي العلمي للظاهرة اللّغوية باصطناع المنهجيّة العلميّة الدّقيقة.

و يتجلى فكر المعتزلة في فكر الجاحظ في المنحى الكلامي و المنحى الطبيعي. ففي المنحى الكلامي لم يخرج عن المبادئ الخمسة الأساسية التي وضعها المعتزلة، و الجاحظ يذكر المعتزلة باسم «أصحابنا»[4]؛ فهو لا يصرّح بانتمائه إليهم فحسب، بل إنّه يقف موقفا عِدائيا من سائر الفرق و لا يستثني منها إلا المعتزلة. و رغم هذا فإنّه كان ينتقي من أفكارهم ما وجد منها مقنعا، و يخالف ما عدّاها بجرأة و سخريّة مُنقطعي النظير، و تفرّد بآراء له، خاصّة اختلف بها عن فرقته.

أما في المنحى الطبيعي فقد كان الجاحظ يبحث في الطبيعة محاولا الكشف عن القوانين المبثوثة فيها، و ذلك على غرار بعض رجال المعتزلة الذين حاولوا قبله عدّة محاولات في دراسة عالم الطبيعة أو العالم المادي بوجه عام.

[1]- أحمد أمين، فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط11، 1978، ص290.
[2]- ناصر عبد الكريم العقل، مقدّمات في الأهواء و الافتراق و البدع، دار الوطن، ط3، 1417ه، ص98.
[3]- علي خميس، إستراتيجيّة التّأويل الدلالي عند المعتزلة، جريدة الوطن، 2ديسمبر 2003، قطر، ص2.
[4]- الجاحظ، الحيوان، ج1، ص339؛ ج2، ص53. و ينظر أيضا الرسائل الكلامية ص166.

أما منهج البحث عند الجاحظ فهو منهج المعتزلة حيث استمدّ منهم منهجه العقلي و نزعته العقلانيّة الّتي صاحبته مفسِّرا كما صاحبته محدِّثا، و صاحبته متكلِّما، و فيلسوفا طبيعيا، بل صاحبته أديبا بلاغيًّا.[1]

[1]- عبد المجيد الجوري، مكانة العقل في فلسفة الجاحظ، مذكِّرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2004/2003، ص106.

المبحث الثالث: الآراء و المفاهيم اللّغويّة عند الجاحظ:

يعتبر البيان و التّبيين مستودعا للعديد من النّظريات و الدّراسات المختلفة معظمها لم يكشف السّتار عنها بعد دراسة و تحليلا، و التّي ألقي عليها الضوء قليلة و إن صحّ القول نادرة خاصة في مجال اللّغة، و على حدّ تعبير محمّد الصغير بنّاني:« نحن لا ندري سبب هذا السّكوت حول دراسة مختلف القضايا اللّسانية في هذا الكتاب القيّم، رغم ذيع صيت صاحبه.»

و من القضايا التّي قلّت الدراسة و الالتفات إليها نجد:

1. نظرية الكلام:

المتصفّح للبيان و التّبيين يجد أنّ للجاحظ نظرية للكلام رغم عدم وجود نص مباشر تشير إلى وجودها، و المتقصّي لمضمونه يدرك معالمها الأساسية و يستطيع تصوّرها بشكل عام و مجمل.[1]

و في إطار هذه النّظريّة تطرّق الجاحظ في كلامه إلى عدّة مواضيع هامة عن أصناف الدّلالات، و عن كل ما يمسّ النّظام الصّوتي و البنوي للغة. و رغم تشتّت هذه المواضيع في كتابه، إلا أنّ جمعها يؤدي بنا إلى الحديث عن نظرية كاملة للكلام[2]، تعطينا فكرة واضحة عن موقفه الحقيقي من جميع القضايا اللّسانية.

و نظرا لأهمية الموضوع و صعوبته، سندرسه على أقسام كالتالي:

1-1- عملية الكلام عند الجاحظ في إطارها النّظري:

ينظر الجاحظ إلى عملية الكلام تقريبا بنفس المنظور الذي يراه الكاتب الرّوسي رومان جاكبسون في كتابه "رسائل في اللّسانيات العامة"، الذي يرى فيه أنّ الكلام يجب أن يدرس من خلال وظائفه المتنوّعة[3]، و لمعرفة هذه الوظائف يجب أن نلتقي نظرة وجيزة على العوامل المقوّمة لكلّ أداء لساني أو عملية تبليغ لفظية، و ذلك يتضح أكثر في دورة الخطاب المتكوّنة من ستّة عناصر (المُخاطِب، المُخاطَب، الخِطاب، السِّياق، الاتصال و الوضع)، فهذه العناصر تسمح ببث الخِطاب و إبقائه متواصلا؛ حيث يرسل المخاطِب خطابا إلى المُخاطَب، و هذا يكون محالا على سياق، و يكون هذا الأخير مدركا و مفهوما من المخاطَب، ثمَّ إنَّ الخِطاب يتطلب وضعا يتفق عليه سواء كلّيا أو جزئيا من المُخاطَب و المُخاطِب، كما يقتضي الخطاب قناة طبيعيَّة أو ارتباط بين المرسل و المرسل إليه[4]؛ و هذا يمثّل شرحا لعملية الكلام عند جاكبسون.

---

[1]- إدريس بلمليح: الرّؤية البيانيّة عند الجاحظ، دار الثقافة، الدار البيضاء المغرب، 1984، ص139.
[2]- محمّد الصّغير بنّاني: النّظرية اللّسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ، ص67-68.
[3]- رومان جاكبسون: رسائل في اللّسانيات العامة، ص213.
[4]- محمّد الصّغير بنّاني: النّظرية اللّسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ، ص68-69.

و نفس الأمر نجده تقريبا عند الجاحظ، إلا أنّه يتصوّر هذه العمليّة من خلال إبلاغ الرّسالة الدّينيّة التّي من خلالها افتتح القضايا اللّسانية في كتابه، و تتلخص في بعدين أساسيين هما:

أوّلا: فهم الرّسالة الدّينية كما نزلت و كما اقتضت حكمت الله أن تكون.

ثانيا: تبليغها و إفهامها للآخرين بالوسائل البشريّة المقتصرة على الكلام[1].

عند التأمل في هاذين البعدين يمكن ربط الأول بمفهوم البيان(أو الفهم)، و الثاني بمفهوم التّبيين(أو التّفهيم) اللّذين يمثلان المرحلتين الأساسيتين في عملية الكلام عند الجاحظ.

و قد خصّ الجاحظ هذه الفكرة بالعديد من الأمثلة و الشّروحات نذكر منها:

«قال الله تبارك و تعالى:« و ما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم.» قال: قد يرسل الله الرّسول إلى قومه، و أُرسِل في ذلك الوقت إلى قوم آخرين لما كان الثاني ناقضا للأوّل. فإذا كان الأمر كذلك كان قومه أوّل من يفهم عنه، ثم يصيرون حجّة على غيرهم.»[2]؛ فعملية التّبليغ تجري من خلال هذا الكلام على الشّاكلة التّالية: أنّ هناك رسالة دينيّة نزلت من السّماء على متفَهَّم (المُخَاطَب) من قبل متفهِّم (المُخَاطِب) وجب عليه فهمها، ثمَّ تبليغُها و إيصالها بلسان قومه، فيصبح هنا المُخاطَب مُفهِما (مُخَاطِبا) لقومه؛ أي بألفاظ و معاني يعرفها و يفهمها هو و قومه «لأنّ مدار الأمر على البيان و التّبيين و على الإفهام و التّفهّم، فكلّما كان اللّسان أبين كان أحمد، كما أنّه كلّما كان القلب أشدّ استبانه كان أحمد و أبين.»[3]

و قد بسّط محمّد الصّغير بنّاني ما سبق ذكره، بالمخطط التّالي:

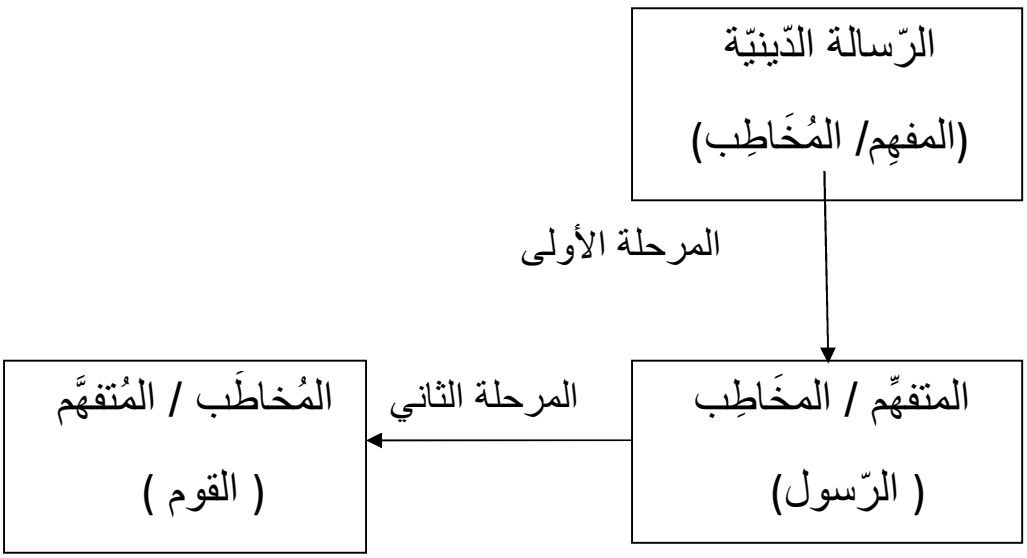

[1]- المرجع نفسه، ص69.
[2]- البيان و التّبيين، ج3، ص291.
[3]- البيان و التّبيين، ج1، ص11.

يرى محمّد الصّغير بنّاني أنّ هذه الاعتبارات كلّها تؤدّي بالجاحظ إلى طرح قضيّة المُفهِم و المُتَفَهِم أيُّهما أفضل؟ و الدّور الذي يقوم به كلّ منهما في تأدية الرّسالة الكلامية و تقبّلها؟ و يرى أنّه يُعطينا الجواب عن ذلك في قوله: « المفهم لك و المتفهم عنك شريكان في الفضل إلا أنّ المفهِم أفضل من المتفهِم، و كذلك المعلّم و المتعلّم هكذا ظاهر هذه القضيّة و جمهور هذه الحكومة إلا في الخاص الذي لا يذكر و القليل الذي لا يشهد.»[1]، من خلال كلامه هذا نستشف إدراكه البعيد للدّور الذي يقوم به كل منهما في عملية الكلام و التّبليغ.

و إذا خرجنا عن نطاق الميدان الدّيني إلى ميدان الحياة اليوميّة نجد أنّ العمليّة تجري على نفس الشّاكلة، باعتبار أنّ الكلام البشري رسالة(message) على غرار الرّسالة الدّينيّة، يتم فيها تناقل رسالة ما بين طرفين يتقاسمان أو يتشاركان نفس اللّغة(الشّفرة)، و قد ذكر الجاحظ في موضع من كتابه ما حلّ بأعرابي من الضّيق و الهمّ لأنّه لا يفهم و لا يستطيع إفهام الأعاجم الذّين حلّ عندهم في قوله:« و أنا رأيت عبدا أسود لبني أُسيد قدم عليهم من شِقِّ اليمامة، فبعثوه ناطورا، و كان وحشيا محترما؛ لطول تغربه كان في الإبل، و كان من الأكرة، فكان لا يفهم عنهم و لا يستطيع إفهامهم، فلما رآني سكن إليّ، و سمعته يقول: لعن الله بلدا ليس فيها عرب.»[2]

فالجاحظ يقرّ أنّ الكلام المبلغ بين(المتكلم و المتلقي) المفهم و المتفهم يجب أن يكون بلغة و ألفاظ يفهمها كلّ منهما، كما يرى أنّهما في عملية الخطاب مرتبطان بأسباب الكلام، و في هذا الصّدد يقول: « المعاني القائمة في الصّدور في صدور النّاس المتصوّرة في أذهانهم، و المختلجة في نفوسهم، المتصلة بخواطرهم... و إنّما يُحيي تلك المعاني ذكرهم لها و إخبارهم عنها... و هذه الخصال هي التّي يقر بها الفهم ... و يكون إظهار المعنى.»[3]؛ فالرّسالة المبلغة ليست إلا حالات فكرية أو نفسية أو اجتماعية يريد المتكلّم إبلاغها بواسطة لغة مشتركة بين طرفين.

1-2- منازل التّعبير اللّغوي عند الجاحظ:

اختلفت الدّراسات و البحوث حول رؤية العالم عند الجاحظ من خلال آثاره، و اتضح في معظمها أنّه يتصوّر العالم بيانيا؛ أي أنّه يرى بأن الكون و الطبيعة و الحيوان و الإنسان تعبّر عن نفسها بأشكال تعبيريّة و إشاريّة مختلفة[4]. و الدارس للجاحظ يرى أنّه تطرّق بإسهاب إلى قضيّة هامة و هي دراسة العلاقات بين الإنسان من جهة، و بين الدليل من جهة أخرى؛ أي بين المتكلم و الدليل[5]، و بما أنّ معظم نصوصه تصرّح بأنّ هذه العلاقة تسمى بيانا نستنتج أنّ البيان علاقة بين الدليل و المتكلم، أو بعبارة أخرى بين الدال و المدلول و بين المتكلم من جهة أخرى[6].

---

[1]- المصدر نفسه، ج1، ص11-12.
[2]- البيان و التّبيين، ج1، ص71.
[3]- المصدر نفسه، ج1، ص75.
[4]- إدريس بلمليح: الرّؤية البيانية عند الجاحظ، ص120.
[5]- يوجد نوعان من الدلائل عند الجاحظ: دليل ذو وجه واحد هو المعنى، يظهر للغائب مما نفهمه من الأجسام الصامتة. و دليل ذو وجهين اثنين: وجه مدلول ذو معنى، ووجه دال يجعل الإنسان يعبّر عن المعاني بما لديه من لغة.
[6]- - محمّد الصّغير بنّاني: النّظرية اللّسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ، ص74.

و قد ارتئ الجاحظ دراسة هذه العلاقة التّي ذكرها بإسهاب في كتاب الحيوان، و كرّرها بكثرة في البيان و التّبيين من خلال خمسة أصناف من الدلالات، فهو يرى« أنّ أصناف الدّلالات على المعاني من لفظ و غير لفظ خمسة أشياء لا تنقص و لا تزيد: أوّلها اللّفظ، ثمّ الإشارة، ثمّ العقد، ثمّ الخطّ، ثمّ الحال التّي تسمى نصبة.»[1]

و يعلّق محمّد الصّغير بنّاني على هذه المنازل على أنّها لم تنل العناية الكافية من قبل النّقاد و الدارسين رغم أهميّتها الكبيرة، و التّي يعتقد أنّها أساس نظامه الكلامي في معناه اللّساني و الفلسفي معًا حيث يقول: « فإذا رجعنا إلى النّصوص التّي وردت فيها لاحظنا أنّ الجاحظ يتّخذ فيها موقفين مختلفين: موقف يتميّز بالتّعبير الصّريح، يحاول أن يفسر فيه كلّ قسم تفسيرًا لسانيا يشف عن قصد علمي. و موقف يتميّز بالتّعبير الرّمزي يضفي فيه السّياق لهجة ميتافيزيقيّة و يشحن عباراته بمعانٍ تتجاوز استعمالها المعهود.»[2]

و من هنا نستنتج أنّ هذه المنازل عند الجاحظ تعبّر تارة عن نظام لساني حقيقي، و تارة أخرى عن نظام فلسفي لا يمكن فهمه إلا من خلال النّظام كلّه[3].

و من خلال ما يلي نورد الأوصاف الهامة لكل منزلة، و التّي تمثّل وسائل التّعبير و التّبليغ عند الجاحظ، و قد عمدنا إلى ذكرها على غير التّرتيب الذي ذكره الجاحظ، مخلّفين منزلة اللّفظ إلى المرتبة الأخيرة كونها تمثّل حوصلة كل المنازل، و هي كالتّالي:

المنزلة الأولى: النّصبة

صنف من أصناف الدلالة على المعاني و التّعبير عنها، و هي أكثرها ارتباطا بالفكر الاعتزالي، ففيها تتجلى العلاقة بين الإنسان و الله عن طريق العالم. و النّصبة عند الجاحظ « هي الحال الدّالة، التّي تقوم مقام تلك الأصناف و لا تقصِّر عن تلك الدلالات.»[4]، الدلالات.»[4]، و عاد إلى تعريفها في موضع آخر بقوله: « و أما النصبة فهي الحال النّاطقة النّاطقة بغير اللّفظ، و المشيرة بغير اليد، و ذلك ظاهر في خلق السّموات و الأرض و في كل صامت و ناطق جامد و نام...فالدلالة التي هي الموات الجامد، كالدلالة التي في الحيوان النّاطق. فالصامت ناطق من جهة الدّلالة و العجماء معرّبة من جهة البرهان.»[5]

و قد أسهب الجاحظ في طرح الأمثلة التي تفسر معنى النّصبة و التّي تفيد كلّها أنّ النّصبة هي الحال التّي توحي بها الأشياء لكلّ ناظر، و هي خاضعة للتّدبر العقلي، لأنّه «متى دلّ الشّيء على معنى، فقد أخبر عنه و إن كان صامتا و أشار إليه و إن كان ساكنا.»[6]، و نذكر مثالا للجاحظ يشرح بدقة ما سبق ذكره، قوله: «سل الأرض فقل: من شقّ أنهارك، و غرس أشجارك و جنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارا، أجابتك

[1]- البيان و التّبيين، ج1، ص76.
[2]- محمّد الصّغير بنّاني: النّظرية اللّسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ، ص76.
[3]- أي من خلال اندماج النّظام اللّساني و النّظام الفلسفي.
[4]- البيان و التّبيين، ج1، ص76.
[5]- البيان و التّبيين، ج1، ص81.
[6]- المصدر نفسه، ج1، ص81.

اعتبارا.»[1]؛فالمخلوقات المتنوّعة في العالم أعظم دليل على أنّ للكون خالقا، و من تدبّر فيه تجلّى له الأمر، و من خلال هذا المثال يتّضح لنا جليّا مقصود الجاحظ من النّصبة التّي هي دلالة بغير لفظ، فالحال الدّالة التّي هي السّموات و الأرض التّي بها العِبر تدلّ عند الجاحظ على الحكمة الإلهية المودعة فيها، الموحاة من الله عزّ و جلّ و التّي لم تُخلق عبثا، بل لكي تحمل رسالة صامتة.

و انطلاقا من هنا، يذهب محمّد الصّغير بنّاني إلى أنّ نظرية الكلام عند الجاحظ قائمة على فهم الرّسالة الدينيّة و تبليغها كما سبق و ذكرنا. أما إدريس بلّمليح فيرى أنّ نظرية البيان عند الجاحظ يمكن دراستها في ظلّ العناصر الثلاثة المحدّدة لفكر المعتزلة(الله، الإنسان، العالم) خاصّة علاقة الإنسان بالعالم القائمة على التّأمّل، فالعالم بيان، و الإنسان مُتبيّن، عليه أن يتتبّع الدّلائل الماثلة أمامه بما يتميّز به من قدرة على الاستدلال و الوعي و التّدبّر.[2]

و نستخلص مما ذكرناه، أنّ النّصبة ليست إلا المعنى، و هي تختلف عن غيرها من منازل التّعبير في كونها لا تتكوّن من وجهين (دال و مدلول)، فهي في التّعبير الجاحظي الكائنات التّي تعمّر الكون و الفضاء، و هي المعاني المبسوطة إلى غير غاية، و الممتدّة إلى غير نهاية، فتكون بذلك المعاني مطروحة في الطّريق و على الإنسان إستكناه دلالتها.

المنزلة الثانية: الخطّ

الخطّ عند الجاحظ هو الكتابة اليدويّة التّي يقيّد بها الإنسان لغة الكلام، أو هو التّعبير عن المعاني بواسطة الحروف. يقول الجاحظ: « و لذلك قالوا: القلم أحد اللّسانين.»[3]، فالخطّ أو الكتابة أحد أنواع الدلالات اللّسانيّة إذاً، وظيفته تسجيل لغة الكلام و المحافظة عليه في الزمن الآني ليتمّ التّواص به بين الأفراد و المجتمع في المستقبل، الأمر الذي لا تتيحه عمليّة الكلام المعتمدة على الصّورة الصّوتيّة، «فالكتاب يقرأ بكل مكان، و يدرس في كلّ زمان، و اللّسان لا يعدو سامعه و لا يتجاوزه إلى غيره.»[4]

و قد أشار الجاحظ إلى عدّة خطوط أخرى في عدّة آيات قرآنيّة بعبارة "قلم" في ذكره للآيات التّالية: «اقرأ و ربّك الأكرم الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم.»[5] و قوله:« ن و القلم و ما يسطرون»[6]؛ فهذا الخطّ هو الوحي المنزّل و المخطوط المحفوظ الذي تُسجل فيه الأعمال خيرها و شرّها، تُبلغ النّاس بأعمالهم يوم القيامة، و غيرها من الأمثلة كثيرة أوردها الجاحظ.

و انطلاقا من هذا نلتمس الأهمية التّي أعطاها الجاحظ للخطّ، حيث اعتبره لغة لولاها لما وصل إلينا هذا الزّخم الهائل مما خلّفه الأوّلون من أفكار و أشعار و أقوال، فكما

[1]- المصدر نفسه، ج1، ص81.
[2]- محمّد الصّغير بناني: النّظريات اللّسانية و البلاغية و الأدبيّة عند الجاحظ، ص69 و 74. و إدريس بلّمليح: الرّؤية البيانية عند الجاحظ، ص77.
[3]- البيان و التّبيين،ج1، ص78.
[4]- المصدر نفسه، ج1، ص80.
[5]- اقرأ
[6]- نون

يُفصح النّاطق عن معانيه بالألفاظ، يُفصح الكاتب عن معانيه بقلمه. و لعلمهم بهذه المزيّة، فقد كان الأوائل يحثّون على الكتابة و خير دليل على هذا قول ذو الرّمة لعيسى بن عمر:« أُكتب شعري، فالكتاب أحب إليّ من الحفظ، لأنّ الأعرابي ينسى الكلمة(...) و الكتاب لا ينسى و لا يُبدل كلاما بكلام.»[1]، لكن لا يجب أن نفهم من هذا أنّ الخطّ أكبر حظّا من الإبلاغ و البيان، فأسلوب صاحب الخطّ و تمكُّنُه من التّعبير عن المعنى له أثره في الإفهام و التأثير.

يرى إدريس بلّمليح أنّ الباحث يجب أن يقيم الدّليل الواضح على أنّ الخطّ عند الجاحظ، اتّخذ صبغة النّظام باعتبار أنّ اللّغة نظام، فالجاحظ يرى بشكل مباشر أنّ الكتابة نظام ذو صبغة مرئيّة، شبيه بنظام اللّغة ذي الصّورة الصّوتيّة. و إن أردنا إثبات هذا الوعي عند الجاحظ، سنتطرّق إلى البحث عن مدى توفّر شروط النّظام في هذه المنزلة، و أوّل شرط هو وحداته المكوّنة: فالجاحظ جعل من الحرف المصوّر في القرطاس شبيها بالحرف النّاتج عن الصّوت المقطّع في الهواء؛ أي إذا كانت الوحدة الأساسية للّغة هي الصّوت المقطّع، الذّي يصدر عن جهاز النّطق و يدرك عن طريق الأذن، فإن كانت وحدة الكتابة أو الخطّ هي الحرف المصوّر المرئي[2]. و ثاني شروط النّظام تمفصل الوحدات المكوّنة و هو ما أسماه الجاحظ "بالجمع" حيث قال: "الحروف المجموعة" أثناء حديثه عن اللّغة[3]، فبما أن الحروف في صورتها الصوتية تتمفصل و تجتمع، فالأمر سيان بالنّسبة للحروف المكتوبة. و ثالثا الدّلالة النّاتجة عن تمفصل هذه الوحدات المكونة و اجتماعها من خلال تركيب وحداتها و تأليفها ثم العلاقات المتبادلة بينها، و القوانين التّي تحكم هذه الوحدات.

و تلخيصا لما سلف ذكره، ينزل الخطّ عند الجاحظ منزلة مقاربة لمنزلة اللّفظ لذلك جعله تاليا له.

المنزلة الثالثة: العقد

الوسيلة الثالثة من وسائل البيان و التّعبير لدى الجاحظ، و قد اضطرب العلماء و الدارسون في تحديد مفهوم واضح له. و معناه كما جاء عند الجاحظ هو الحساب، حيث قال:« و أما القول في العقد، و هو الحساب دون اللّفظ و الخطّ.»[4]. أعطاه الجاحظ أهميّة بالغة و ذلك بربطه بالجانب الدّيني و الحياة الأخرويّة، و ذكر في ذلك عدّة آيات قرآنيّة فحواها ذكر الله عزّ و جلّ الحساب الذي يشتمل على معانٍ كثيرة و منافع جمّة. يقول في هذا الصّدد أنّه لولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدّنيا لَما فهموا عن الله عزّ و جلّ في الآخرة.[5]

و العقد عند الجاحظ نوع خاص من الحساب، فهو يتمّ بأصابع اليدين كما نصّ عليه قائلا: « و أما القول في الحساب دون اللّفظ و الخط.»[6]؛ فمن هنا نفهم أن للحساب

[1]- الجاحظ: الحيوان، ج1، ص42.
[2]- إدريس بلّمليح: الرّؤية البيانية عند الجاحظ، ص132.
[3]- ينظر: المرجع نفسه، ص133.
[4]- البيان و التّبيين، ج1، ص80.
[5]- المصدر نفسه، ج1، ص22.80
[6]- المصدر نفسه، ج1، ص80.

ثلاثة وسائل: الخطّ، اللّفظ و العقد، الأولى تتمّ بالتّدوين، الثّانية بالمادّة الصّوتيّة، أما الأخيرة بأصابع اليد التّي تتمّ بها عملياته المختلفة، و " ما يُؤكّد هذا ذكرها في معرض حديث الجاحظ عن منافع اليد قائلا:« ثمّ حظّها في العقد.» أي أنها وسيلة الحساب بالعقد."[1]

و هذه الوسيلة حسب الجاحظ يستعين بها الإنسان في ضبط مختلف شؤونه في مختلف المجالات الاجتماعية، التّجاريّة... فبفضلها يُقيّد الفرد صحّة تعامله مع أفراد مجتمعه و يطمئنّ عليها، الأمر الذي يجعلها أداة تواصل و تعبير.

المنزلة الرابعة: الإشارة

هي توأم اللّفظ، يُعنى بها الحركة أو الإيماءة التّي يقوم بها الإنسان بغية التّعبير عن مكبوتاته أو عن شيء ما، و عرّفها الجاحظ عدّة تعريفات أوّلها قوله: « فأما الإشارة فباليد و بالرّأس، و بالعين، و الحاجب، و المنكب إذا تباعد الشّخصان و بالثّوب و السّيف، و قد يتهدّد رافع السّيف و السّوط فيكون زاجرا و يكون وعيدا.»[2]. و يقول في موضع آخر: « و من شأن المتكلمين أن يشيروا بأيديهم و أعناقهم و حواجبهم.»[3]

و بهذا تكون الإشارة عند الجاحظ وسيلة تعبيريّة يقوم بها المتكلّم عن طريق حركة ليساعد اللّفظ لبلوغ حدٍّ أقصى في إفهام ما يودّ قوله. فتكون الإشارة بهذا تابعة للّفظ إلا أنها تختلف عنه لكونها ذات طابع مادي يدرك عن طريق العين، لأنّها صادرة عن أعضاء كالعين، و الحاجب و المنكب و اليدّ... في حين أنّ اللّفظ و هو المادّة الصّوتيّة يُدرك عن طريق السّمع و يُؤكّد الجاحظ هذا بقوله:« إنّ الإشارة و اللّفظ شريكان، و نعم العون هي له و نعم التّرجمان هي عنه، و ما أكثر ما تنوب عن اللّفظ و ما تُغني عن الخطّ.»[4]

و بالإضافة إلى كونها مساعدة للّفظ فقد فضّل الجاحظ الإشارة عن اللّفظ كونها ذات طبيعة تواصليّة أساسية و لها دور هام في التّأديات الكلاميّة. يقول:« إنّ مبلغ الإشارة أبعد أيضا من مبلغ الصوت.»[5]، فالوظيفة التّي يؤديها الإشارات نظام خاص من الأشكال الدّالة متفق عليها من طرف الجماعة الإنسانية المُعيّنة بغرض التّعبير عن مقاصدهم، فالإشارة لا تعتمد على التقطيع و التّركيب المتسلسل من المعاني بل تشكل حركة أو علامة من حيث معنى الكلام المقطّع، فعندما نرى مثلا شخصا رافعا سيفه في وجه الآخر هذه الحركة تنطوي تحتها الكثير من المعاني، يُعبر عنها كلاميا بعدّة كلمات متسلسلة مثلا كقولنا: اقتربت مني خطوة أخرى فسأقتلك بهذا السّيف[6]. كما يُحدّد إدريس بلّمليح حيّز الفضاء نطاقاً يُجسّد معنى الحركة عند الجاحظ، بما أن النّسق التّركيبي للكلام يتحدّد في حيّز الزمن، و النّسق التركيبي للخطّ في حيّز المكان[7].

[1]- ينظر: إدريس بلّمليح، الرّؤية البيانية عند الجاحظ، ص128.
[2]- البيان و التّبيين، ج1، ص77.
[3]- المصدر نفسه، ج3، ص116.
[4]- المصدر نفسه، ج1، ص78.
[5]- المصدر نفسه، ج1، ص79.
[6]- محمّد الصّغير بنّاني: النّظريات اللّسانية و البلاغيّة و الأدبية عند الجاحظ، ص84.
[7]- إدريس بلّمليح: الرّؤية البيانيّة عند الجاحظ، ص124.

و يمكن تلخيص ما قلناه أنّ الإشارة عند الجاحظ تكون لغة شبيهة بلغة الكلام، تستخدمها الجماعة المتواضعة عليها في حالات كثيرة كالتباعد بين المتخاطبين، أو حالات الخرس. و كما كل المستويات السابقة أسهب الجاحظ في ذر الأمثلة، لعلّنا نذكر منها قصّة إبراهيم النّظّام مع أبي شمّر التّي فحواها مدى ما تُقدّمه الإشارة من عون في الأداء و التعبير، فأبو شمّر هذا مُعارض كان يقضي على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك، و بالعجز عن بلوغ إرادته أن اضطرّه النّظّام « بالحجّة و بالزّيادة في المسألة حتى حرّك يديه و حلّ حُبوَته و حبا إليه حتى أخذ بيديه.»[1]

و إذا دقّقنا النّظر في هذا المفهوم الذي جاء به الجاحظ، وجدناه إرهاصا لما ينضح علم اللّغة الحديث في حديثه عن الإشارات و الحركات الجسميّة التّي باتت علما قائما بذاته و هو علم السّيمياء*، و لهذا عند الجاحظ وقفات كثيرة مفادها أن الإشارة لها أثرها في التواصل و التبليغ اللّغوي، و قد تكون أحيانا أكثر إبلاغا.

المنزلة الخامسة: اللّفظ

جاء في لسان العرب: لفظ (اللّفظ) أن ترمي بشيء كان في فيك... و ذلك الشيء لفاضة... و الدّنيا لافظة تلفظ بمن فيها إلى أخرى؛ أي ترمي بهم، و الأرض تلفظ الميّت إذا لم تقبله و رمت به...[2]؛ بمعنى إخراج الشيء أو التّلفظ به.

يعدّ اللّفظ عند الجاحظ أولى منازل البيان و هو الكلام المنطوق المعتمد على الأداء الصّوتي، يُعبّر به الإنسان عن حاجاته و يتواصل به مع غيره كما هو الحال بالنّسبة للخطّ و الإشارة. إلا إنّ الجاحظ يعتبره أبلغها على الإطلاق.

فاللّفظ وسيلة تواصل و تعبير عند الجاحظ، تُؤدي وظيفة التواصل بين أفراد الجماعة ووظيفة التّعبير عن أفكار و مشاعر هؤلاء الأفراد[3]. يقول الجاحظ: « اللّسان مقصور على القريب الحاضر.»[4]، كما أنّه يقول كان يُؤيّد صاحب المنطق* بأنّ ميزة الإنسان هي قدرته على الكلام و الإبانة عن نفيه بالألفاظ. يقول: « قال صاحب المنطق: حدّ الإنسان الحيّ، النّطق المبين»[5]. و إذا ما نظرنا إلى ما سبق ذكره من شرح لمنازل التّعبير

---

[1]- البيان و التّبيين، ج1، ص91.

*يعتبر فرد يناند دي سوسير أول من أشار إلى هذا العلم أثناء دراساته اللغوية حيث نجده يقول ":يمكننا إذن تصور علم يدرس حياة العلامات في صدر الحياة الاجتماعية، وهو يشكل جزء من علم النفس الاجتماعي وبالتالي من علم النفس العام إننا ندعوه بالسيميولوجيا تلك التي تدلنا على كنه وماهية العلامات،وما الألسنية إلا جزء من هذا العلم العام (sémiologie) (فرد يناند دي سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، تر :يوسف غازي ومجيد النصر،المؤسسة الوطنية للطباعة 1986 ، ص27 .)، يرى ش.س :بيرس أن السيميائيات والمنطق هما وجهان لعملة واحدة قائلا : "ليس بإمكاني أن أدرس أي شيء في هذا الكون كالرياضيات والأخلاق والميتافيزيقا والجاذبية الأرضية والديناميكية الحرارية والبصريات والكيمياء وعلم التشريح المقارن، علم الفلك، وعلم النفس، والصوتيات، وعلم الاقتصاد وتاريخ العالم، والكلام والسكوت والرجال، والنساء، والنبيذ، وعلم القياس، وعلم الموازين إلا أنه نظام سيميائي)"مقال علم العلامات " السيميوطيقا " ف ج غزول (منشورات عيون ، الدار البيضاء ، 1987،ص 16/1.

[2]- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر بيروت، ط3، 1994، ج7، ص461، مادة لفظ.

[3]- إدريس بلّمليح: الرُؤية البيانيّة عند الجاحظ، ص 134.

[4]- البيان و التّبيين، ج1، ص80.

* صاحب المنطق هو أرسطو كما كان يدعوه الجاحظ.

[5]- البيان و التّبيين، ج1، ص1.

عند الجاحظ التّي ذكرناها، سنرى أنّ اللّفظ عند الجاحظ بمثابة أصل تفرّعت عنه وسائل التّعبير الأخرى، إلا أنّه يعتبر اللّفظ أكثرها نفعا و بيانا و ذلك لأنّه يرى أنّه لولا اللّسان لكان الإنسان شأنه شأن الحيوان أو الجماد لولا أن وهبه الله إياه، و في هذا الصّدد يقول:

فما المرء إلا الأصغران: لسانه و عقله، و الجسم خلق مصوّر[1]

فاللّفظ عند الجاحظ إذا هي اللّغة الأكثر وضوحا و قدرة على التّعبير عن المعاني و هي أهم وسيلة تواصليّة و أقدر أداة تعبيريّة لما لها من دور اجتماعي أساسي لإقامة الحياة البشريّة.

بالإضافة إلى أنّ صاحب البيان و التّبيين أدرك بأنّ الصّوت آلة اللّفظ، فلولا الصّوت لما طهر اللّفظ و لما سمعناه و تخاطبنا به. كما اهتدى من خلاله إلى فكرة التّقطيع و وظيفة الصّوت في تحديد الوحدات الدّالة و هو تصوّر يقترب من تصوّر أندري مارتيني لوظيفة الصّوت في عمليّة التّقطيع و التّأليف. يقول الجاحظ: « الصّوت هو آلة اللّفظ و الجوهر الذي يقوم به التقطيع و به يوجد التّأليف. و لن تكون حركات اللّسان لفظ و كلاما موزونا و لا منثورا إلا بظهور الصّوت. و لا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع و التأليف»[2]

لقد أدرك الجاحظ أنّ أداة التّعبير عن الضّمير هي اللّسان إذ يُشبّهه في وظيفته بالتُّرجمان الذي يحوّل المعاني و ينقلها من عالم الغيب إلى عالم الشّهادة. و لذلك كان:« اللّسان أداة يظهر بها حسن البيان و ظاهر يخبر عن الضّمير و شاهد يُنبِّئك عن غائب »[3]، و زيادة على كل ما سبق فقد أولى الجاحظ اهتماما و عناية كبيرين باللّفظ كونه المتكلّم المعتزلي فقد كانت في عهده وسيلة أساسية و أداة محوريّة تقوم عليها الخطابة و المناظرة.

كاستنتاج، أصبح من الواضح أنّ أهم قضيّة عند الجاحظ هي البيان (التبليغ) فذهب يستوضح وسائلها و دعائمها و الغاية التّي يسعى إليها الإنسان بها، و تعتبر المنازل الخمسة التّي سبق ذكرها الطرق التّي يتجلى بها المعنى بغاية البيان، أما كيفيات التعبير بها فهي مختلفة، وقد تكون فردية(لكل معنى صنف من هذه الأصناف)، كما قد تجتمع لتعبّر عن معنى واحد. الأمر الذي جعل يلتقي في كثير من النّقاط من خلال حديثه عن هذه المنازل مع السّيميائيات و الدراسات اللّسانيّة الحديثة.

و قبل المرور للحديث عن نظريّة اللّغة عند الجاحظ، نذهب أولا للعرض في أمر –نرى من المهم- يتطلّب منا التّنبيه إليه و هو قضيّة اللّفظ و المعنى كونها ثنائيّة تركّب لنا الوحدة اللّغويّة التّي تتواصل بها و التّي تعدّ عمودا أساسيا في كتاب البيان و التّبيين.

[1]- المصدر نفسه، ج1، ص166.
[2]- البيان و التّبيين، ج1، ص79.
[3]- المصدر نفسه، ج1، ص75.

2. اللفظ و المعنى:

إنّ دراسة العلاقة بين اللّفظ و المعنى تعدّ من أهم الدراسات و القضايا التي دارت حولها أبحاث و دراسات كثيرة باتت الشغل الشاغل للباحثين الذين اختلفوا في زوايا تناولها، الأمر الذي أدى إلى تضارب الآراء حولها بكثرة. و قبل البدء في الكلام عن العلاقة بين اللّفظ و المعنى عند الجاحظ لابدّ من تناول المعنى اللّغوي و الاصطلاحي لمفهوم اللفظ[1] و المعنى.

المعنى: لغة: معنى كلّ شيء محنته و حاله التّي يصير إليها أمره، و روى الأزهري عن أحمد بن يحيى قال: المعنى و التّفسير و التأويل واحد عنيت بالقول كذا: أردت، و معنى كلّ كلام و معانته و معنيته كمقصده و الاسم العناء، يقال: عرفت ذلك في معنى كلامه و معناة كلامه.

و عنوان الكتاب: مشتقّ فيما ذكروا من المعنى، و فيه لغات: عنونت و عنيت و عَنَنْتُ. و قال الأخفش: عنوت الكتاب و أعنه، و أنشد يونس:

فُطِن الكتاب إذا أردت جوابه وَاعنُ الكتاب لكي يُسَرَ و يُكتما.[2]

أما مفهوم المعنى عند الجاحظ فسنحاول أن نستشفه من خلال ما يقصده من تأكيده على «أنّ المعاني مبسوطة إلى غير نهاية و ممتدّة إلى غير نهاية فأسماء المعاني مقصورة معدودة و محصّلة محدودة»[3]

شكّلت هذه القاعدة التّي أدلى بها الجاحظ جدلا كبيرا بين الكثير من علماء اللّغة، حيث رأى معظمهم أنّ الجاحظ هنا منتصر للّفظ دون المعنى، و يُؤيّد رأيهم هذا النّص الوارد في كتاب الحيوان يقول الجاحظ فيه: « و المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي و العربي و البدويّ و القرويّ، و إنّما الشأن في إقامة الوزن و تخيّر اللّفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء و في صحّة الطّبع و جودة السّبك و إنّما الشّعر صناعة و ضرب من النّسيج و جنس من التّصوير»[4]، إلا أنّ المدقّق في هذا النّص الشائع بين أهل اللّغة و الأدب يجد أنّ الجاحظ يتحدّث فيه عن الألفاظ التّي ليس لها أيّ معنى حينما تكون منفردة بل تكتسب معنى و قيمة داخل السّياق أو البناء اللّغوي الذي ترد فيه[5]، فالمعاني المطروحة في الطريق هنا هي الكائنات التي تملأ الكون، فالحصان مثلا معنى موجود في كلّ مكان يراه العربي و العجمي، إنّما الفرق في كيفية تسميته و تعيينه عند كلاهما. يقول في هذا الصدد:« الأجسام الخرس الصامتة ناطقة من جهة الدلالة.»[6]

---

[1]- اللّفظ قد تناولنا مفهومه لغة و اصطلاحا أثناء حديثنا عن مستويات التعبير اللّغوي عند الجاحظ.

[2]- ابن منظور، لسان العرب، ج15، ص106. و الفيروز أبادي: القاموس المحيط، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، ط1995، م1، ج4، ص415. و ابن فارس: مقاييس اللّغة، دار الجيل، تح و ضبط عبد السّلام محمّد هارون، ط2، ج4، ص146.

[3]- البيان و التّبيين، ج1، ص76.

[4]- الحيوان، ج3، ص131-132.

[5]- عبد العزيز حمودة: المرايا المقعّرة، مطابع الوطن الكويت، 2001، ص274.

[6]- الحيوان، ج1، ص76.

أما من جهة أخرى كما قال محمّد الصّغير بنّاني ليس ما قاله الجاحظ تناقضا أو تهافتا منه، بل إنّ ما يقصده بمفهوم الطّرح في الطريق للمعاني أو الألفاظ على حدّ سواء هو الحالة التّي تكون عليها قبل تركيبها و تنظيمها في جمل للتّفاهم، فما يُقابل المعاني المطروحة في هذه النّظريّة ليست الألفاظ فهي الأخرى معنيّة بالطرح و السّقوط كالقوائم في المعاجم، فهي مبثوثة هنا و هناك تنتظر تركيبها و صوغها في جمل مفيدة صالحة للتخاطب و التواصل، و إنّما يقابلها السبك و النّسيج و التّصوير، إنّه التركيب بكل بساطة.[1]

كما تجدر الإشارة إلى أنّ الجاحظ لا يَقصِر المعنى على الأفكار التّي تظهر في النّفس (الذهن) فهناك التّي تتولّد في المخيّلة و المشاعر التّي تختلج الصّدور دون نسيان الحاجات التّي تجيش في النّفس، و يظهر هذا المعنى في قوله «المعاني القائمة في صدور النّاس المتصوّرة في أذهانهم و المختلجة في نفوسهم و المتصلة بخواطرهم و الحادثة عن فكرهم مستورة خفيّة و بعيدة وحشيّة و محجوبة مكنونة...»[2]، فالمعاني عند الجاحظ تتصف بعدّة خصائص و ميزات أساسيّة يُمكن إجمالها فيما يلي:

- المعاني خفيّة مستورة غائبة عن العيان في قلب الإنسان أو في عقله.
- المعنى الذي يقصد إليه المتكلّم مجهول من جهة المتلقي «لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه و لا حاجة أخيه و خليطه و لا معنى شريكه و المعاون له على أموره و على ما لا يُبلغه من حاجات نفسه إلاّ لغيره...»[3]
- المعاني تحيا بالاستعمال –التّلفظ بها- و بالتالي تتحوّل من البعد إلى القرب و من الغائب إلى الشاهد الحاضر. يقول الجاحظ: «و إنّما يُحيي تلك المعاني ذكرهم لها و استعمالهم إياها، و هذه الخصال هي التّي تقربها من الفهم و تجلّها للعقل.»[4]
- المعاني تختلف عن الألفاظ و وسائل التّعبير الأخرى كونها مبسوطة إلى غير نهاية و ممتدّة إلى غير غاية، أما الألفاظ فهي محدودة معدودة.

كما نجد محمّد الصّغير بنّاني يرى أنّ جدليّة اللّفظ و المعنى عند الجاحظ تتلخّص في فلسفته الميتافيزيقيّة و الطّبيعيّة معاً. و ذلك من خلال القاعدة المشهورة التّي راح يُردّدها في الحيوان(ج1، ص221) و في البيان و التّبيين (ج1، ص70) و التّي تقول " إنّ العالم الصّغير سليل العالم الكبير"، حيث يرى أنّ هذه القاعدة توضّح العلاقة بين اللّفظ و المعنى، فالثاني سليل الأوّل لأنّه ينحدر عنه، فالمعاني في هذا النّظام مثل العالم الكبير أو العالم اللاّنهائي، بينما الألفاظ تمثّل العالم الصّغير أو العالم النّهائي.[5]

كما يرى الجاحظ أنّ أصل العلاقة بين اللّفظ و المعنى هي المطابقة التّامة الدالّة على معنى، فيحدث بينهما نوع من التّسابق، فلا يكون اللّفظ إلى سمعك أسبق من المعنى إلى قلبك. يقول: « و قال بعضهم و هو أحسن ما قلناه و اجتبيناه و دوّناه: لا يكون الكلام

[1]- محمّد الصّغير بنّاني: النّظريات اللّسانيّة و البلاغيّة و الأدبيّة عند الجاحظ، ص142-143.
[2]- البيان و التّبيين، ج1، ص75.
[3]- البيان و التّبيين، ج1، ص75.
[4]- المصدر نفسه، ج1، ص75.
[5]- محمّد الصّغير بنّاني: النّظريات اللّسانيّة و البلاغيّة و الأدبيّة عند الجاحظ، ص87-88.

يستحق اسم البلاغة حتى يُسابق معناه لفظه، و لفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك.»[1]

و في ضوء ما ذكرناه، يبدو أنّ المعاني لا تُشكل هاجسا في نفس صاحبها، لأنّها واضحة في نفسه فهي كما يراها الجاحظ مشتركة بين طبقات النّاس، إلا أنّ الصّعوبة تكمن في البناء الذي يُخرج هذه المعاني إلى المتلقي حتى يعي جيّدا ما يحمله اللّفظ من المعاني و على المتكلّم أن يهتمّ به أفضل اهتمام ليخرج في ثوب جميل يسهل على عقل المتلقي فهمه.

لم يكن الجاحظ إذاً مُتعصّبا للمعنى على حساب اللّفظ، ولا للفظ على حساب المعنى، بل حاول جاهدا في نصوص كثيرة أن يبيّن أنّ أفضل الكلام ما جمع بين لفظ حسن و معنى جميل فهي دعوة للفظ كما هي دعوة أخرى للاهتمام بالمعنى، لأنّ المعنى إذا اكتسى لفظا متخيّرا زاده حسنا و جمالا. يقول في ذلك: «فإذا المعنى اكتسى فظا حسنا و أعاره للبليغ مخرجا سهلا و منحه المتكلّم دلاّ مُتُعَشِّقا، صار في قلبك أحلى و لصدرك أملا، و المعاني إذا كُسِيت الألفاظ الكريمة و ألبست الأوصاف الرّفيعة تحوّلت في العيون عن مقادير صورها، و أربت على حقائق أقدارها بقدر ما زيّنت و على حسب ما زخرفت، فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض، و صارت المعاني في معنى الجواري... »[2]، و لقد شبّه الجاحظ المعاني بالجواري التّي تزداد حسنا بحسب ما تلبسه من زينة. و هنا نستطيع القول أنّه اهتمام بالشكل و لكن ليس على حساب المعنى بل نصّه هذا فيه دعوة إلى الموازنة بينهما.

و من المفيد هنا التأكيد على تقدير الجاحظ لجانب المعنى في العمل الأدبي فعنده « أنّ شرّ البلغاء من هيّأ رسم المعنى قبل أن يهيّئ المعنى عشقا لذلك اللّفظ و شغفا بذلك الاسم حتى صار يجرّ إليه المعنى جرّا و يلزمه به إلزاما»، فمن خلال قول الجاحظ هذا نرى أنّه على الرّغم من تعلّق الجاحظ باللّفظ و استخدامه إلاّ أنّه لا يمكننا التسليم بأنّ المزيّة هي للشّكل دون المضمون، و منه نرى أنّه قدر تعلّق الجاحظ باللّفظ لا يقلّ عن قدر تعلّقه بالمعنى.[3]

3. حدّ اللّغة عند الجاحظ:

يقترب الجاحظ في مفهومه للّغة إلى المفاهيم السّائدة لدى علماء اللّغة المحدثين أمثال دي سوسير الذي يرى أنّ اللّغة هي مجموع العلاقات التّرابطيّة التّناسقيّة المستقرّة في أدمغة المتكلّمين باللّغة الواحدة[4]؛ فهو يرى أنّ اللّغة مخزون ذهني يوجد في أدمغة أبناء المجتمع الواحد على شكل علاقات ترابطيّة يحكمها نظام أو نسق معيّن. الأمر الذي نجده عند الجاحظ، الذي يرى أنّ اللّغة عبارة عن مخزون ذهني خفي محجوب مكنون في صدور النّاس يظهر عن طريق الاستعمال. يقول الجاحظ: « المعاني القائمة في صدور النّاس المتصوّرة في أذهانهم و المختلجة في نفوسهم مستورة خفيّة... و محجوبة مكنونة... لا

[1]- البيان و التّبيين، ج1، ص115. للتّوسّع أيضا : ج2، ص7-8.
[2]- البيان و التّبيين، ج1، ص254.
[3]- عبد الحكيم راضي: الأبعاد الكلاميّة و الفلسفيّة في الفكر البلاغي و النّقدي عند الجاحظ، مكتبة الآداب، القاهرة، ص214.
[4]- ينظر: عبد الله العذامي، الخطيئة و التّفكير(من البنيوية إلى التّشريحيّة)، النادي الأدبي، 1987، ص30.

يعرف الإنسان ضمير صاحبه... و على مل لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره... و هذه الخصال هي التّي تقرّبها من الفهم و تجليها للعقل.»[1]

الجاحظ في نصّه هذا يقدّم لنا عمليّة اتصال لغويّة قام فيها بتعريف الرّسالة و المرسل إليه و المستقبل و الشّفرة، فالرّسالة هي المعاني القائمة في الصّدور، أما المرسل فهم العباد الذين أشار إليهم الجاحظ بالفرد أو الإنسان في عُزلته و يطلب الاتصال، أمّا المستقبل فهو الإنسان الآخر الذي لا يعرف ضمير و لا حاجة صاحبه أما الشّفرة فهي اللّغة التّي تحيا بها المعاني الخافية في صدر المرسل و هذا يوافق ما ذكرناه سابقا.[2]

فهذه العناصر تعبّر عن عناصر العملية الاتصاليّة للّغة باعتبارها أصواتا يستعملها الإنسان للتّعبير عن أغراضه و مقاصده و حاجاته اليوميّة، و هذا ما ذهب إليه ابن جنّي* في الخصائص في باب القول عن اللّغة و ما هي: « أمّا حدّها فإنّها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم »[3]

كما أنّها هناك من يعرف اللّغة على أنّها نظام من الرّموز الصّوتيّة الاختيارية يتواصل بها أفراد المجتمع، كون اللّغة في كلّ مجتمع نظام عام يشترك أفراده في إتباعه و اتخاذه أساسا للتعبير عمّا يجول في خواطرهم من أجل التفاهم و التّبليغ فيما بينهم.[4] فإدوارد سابير مثلا يرى أنّ اللّغة " طريقة أساسيّة مكتسبة لتوصيل الأفكار و الانفعالات و الرّغبات عن طريق نظام معيّن من الرّموز اختاره المجتمع و تعارفوا عليه."[5]

و هكذا يظهر لنا أنّ اللّغة ظاهرة اجتماعيّة و جدت للتخاطب و التّواصل، فها هو الجاحظ يشير إلى ذلك إذ يعتبرها أهم وسائل الاتصال، فهو يرى أنّ ما هو مكنون في الصّدور يظهر عن طريق الاستعمال. يقول: « إنّما يُحيي تلك المعاني ذكرهم لها و إخبارهم عنها و استعمالهم إياها»[6]

لقد أدرك الجاحظ أنّ هذه اللّغة التّي يستعملها المتخاطبون، تحتاج إلى نظام داخلي يضبط هذه المكوّنة للكلام سواء كان مفردا أو مركّبا، فقد لوّح في أكثر من موضع إلى نظاميّة اللّغة، باعتبار أنّ لها نظاما داخليّا يسير وفقه المتكلّم. يقول الجاحظ في هذا الصّدد:« و الصّوت هو آلة اللّفظ و الجوهر الذي يقوم به التّقطيع، و به يوجد التأليف، و لن تكون حركات اللّسان لفظا و لا كلاما موزونا و لا منثورا إلا بظهور الصّوت، و لا تكون الحروف كلاما إلا بالتّقطيع و التأليف...»[7]؛ إنّه يرى أنّ الدلالة اللّفظيّة لا يُمكن أن تتحقّق إلا إذا كانت هناك علامة صوتيّة تكون على تأليف و نظام معيّن، فلا يُمكن بأي حال أن

---

[1]- البيان و التّبيين، ج1، ص75.

[2]- راجع نظريّة الكلام من هذا البحث.

*أبو الفتح عثمان بن جنّي، المشهور بابن جنّي (322ه-392ه) عالم نحوي كبير بلغ في علوم اللّغة العربيّة من الجلالة ما لم يبلغه القليل، و يبدو هذا واضحا في كتبه و أبحاثه. أشهر ما كتب، كتاب الخصائص الذي يتحدّث فيه عن بنية اللّغة و فقهها.

[3]- ابن جنّي: الخصائص، تح عبد الحكيم بن محمّد، المكتبة التّوقيفيّة، 1418ه، ج1، ص44.

[4]- عطيّة سليمان أحمد: الجاحظ و الدّراسات اللّغويّة، مكتبة الزّهراء الشّرق، 1994، ص31.

[5]- ينظر: إسماعيل مغولي[مقال] اللّغة و دورها في عمليّة الاتصال، مجلّة الآداب و اللّغات، قسم اللّغة العربيّة و آدابها، جامعة الأغواط، العدد02، 2004م.

[6]- البيان و التّبيين، ج1، ص

[7]- المصدر نفسه، ج1، ص79.

يتحقّق اللّفظ دون ظهور الصّوت، لذا أولاه الجاحظ في مُؤلّفاته أهميّة كبيرة، و أسهب في ذكر الأمثلة لشرحه، فهو يرى أنّ الصّوت البشري هو كل شيء في الإنسان بل هو الإنسان نفسه.[1]

قد نتوقّف قليلا من خلال النّص السابق للجاحظ، للتّلميح لفكرة التّقطيع عنده و دورها في نظام اللّغة، فهو يرى أنّ الصّوت هو آلة اللّفظ التّي يقوم بها التّقطيع، فالصّوت هو مادّة و جوهر، أما التّقطيع عنده هو حركات وظيفيّة للأعضاء الصّوتيّة كاللّسان و غيره، أو هو استعمال الحروف استعمالا واعيا لغاية التّبليغ؛ فجميع الكائنات بإمكانها إصدار مادة الصّوت، إلا أنّها لن تكون ذا فائدة بلاغيّة ما لم تخضع للتّقطيع، فقد يتهيّأ لنا أنّ بعض الحيوانات مثلا تصدر من الحروف المقطّعة المشاركة لمخارج حروف الإنسان[2] كالغنم التّي يُمكن أن تقول "ما"، أو كالّذي يتهيّأ في أفواه الأطفال كقولهم "ماما" و "بابا"[3]، فكلّها حروف مقطّعة لكنّها خارجة عن عمل اللّسان لأنّها تظهر بالتقاء الشّفتين.

و في ظلّ ما تقدّم، نجد نص آخر للجاحظ يتحدّث فيه عن مفهوم النّظام و الدّور الذي تلعبه الوحدات اللّغويّة في الدّورة الكلاميّة عند تأليفها، حيث إذا لم تقع اللّفظة في موقعها الخاص بها اختلّ النّظام، و بالتّالي لم يُفهم المعنى. يقول في ذلك: « و تجد اللّفظة لم تقع موقعها و لم تصر إلى قرارها و إلى حقّها المقسوم لها، و القافيّة لم تحل مركزها و في نصابها، و لم تتصل بشكلها و كانت قلقة في مكانها، نافرة في موضعها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن، و النّزول في غير أوطانها؛ فإنّك إذا لم تتعاط قرض الشّعر الموزون، و لم تتكلّف اختيار الكلام المنثور، لم يُعبك بترك ذلك أحد»[4]

يمكن القول بأنّ الجاحظ كان عارفا بفكرة النّظام الذي تسير عليه اللّغة انطلاقا من الوحدات اللّغويّة إذ أي إخلال بالنّظام يؤدي إلى تنافر و اضطراب بين الكلمات المستعملة، حيث أنّ حسن التّأليف هو الذي يفرض على الوحدة اللّغويّة مكانها اللّائق بها.

و تأليف الكلمات عند الجاحظ يجري على محورين هو محور التأليف، و محور التّخيير. هناك موضعان تحدّث فيهما الجاحظ عن التّخيير، و يظهر ذلك في قوله: « و كذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوالم، و ملحة من ملح الحشوة و الطّعام فإياك أن تستعمل فيها الإعراب أو تتخيّر لها لفظا حسنا أ و تجعل لها من فيك مخرجا سرّيا، فإن ذلك الإمتاع بها، و يُخرجها من صورتها.»[5]

و يقول في موضع آخر:« رأس الخطابة الطّبع و عمودها الدّربة و جناحاها رواية الكلام، و حُليها الإعراب، و بهاؤها تخيّر اللّفظ»[6]

[1]- المصدر نفسه، ج2، ص338.
[2]- المصدر نفسه، ج1، ص62.
[3]- المصدر نفسه، ج1، ص62.
[4]- البيان و التّبيين، ج1، ص138.
[5]- المصدر نفسُه، ج1، ص146.
[6]- المصدر نفسُه، ج1، ص4.

و من خلال هذين النّصّين استعمل مفهوم التّخيير الذي عنى به العلاقات الاستبداليّة*، هذا المفهوم السائد في الدّراسات اللّسانيّة الحديثة، ففي النّص الأوّل دعا لعدم الاختيار لنادرة من نوادر العرب لأنّ ذلك يفسد كنهها و جمالها، أما في النّص الثاني فهو يُقرُّ بأنّ رأس الخطابة يتطلّب منا أن نختار لها أبهى الألفاظ و أجملها. فيبدو أنّ الجاحظ كان واعيا كلّ الوعي بهذا المحور و الدّور الذي يلعبه في العمليّة الإبلاغية التّواصليّة بين المتخاطبين، كون المتكلّم يحمل كمّا هائلا من الوحدات اللّغويّة في ذهنه فعليه أن يحسّن اختيار الألفاظ التي تُؤدي الدلالة المراد توصيلها.

كما أشار الجاحظ إلى العلاقات التركيبيّة* التّي تعد هي الأخرى أحد أهم المفاهيم الأساسيّة للسانيّات الحديثة، في مواضع عدّة في البيان و التّبيين، و هذا دليل على وعيه التّام لما تحمله هذه العلاقات من الأهمّية باعتبارها آليّة مهمّة يعمل بها النّظام اللّغوي أثناء الكلام الفعلي بين المتكلّمين، إذ أنّ الوحدة اللّغويّة لا تكتسب قيمتها إلا داخل هذا المستوى التّركيبي(علاقات التأليف) ما يعني أنّ العبارة في التّركيب لا تتحدد قيمتها إلاّ بمقابلتها بما يسبقها أو يليها.[1]

كما نشير إلى أنّ هذه العلاقات التّركيبيّة بين الوحدات اللّغويّة تحكمها مجموعة من القواعد و القوانين تسمى بالتراكيب النّحويّة، و هي تختلف باختلاف لغات العالم و التّي لا تسير هي الأخرى على نظام واحد في بناء جملها و تراكيبها.[2]

كما أنّ ترتيب عناصر الجملة لا يخضع لنظام الجملة الدّاخلي فقط فهناك ظروف أخرى تتحكّم فيه كسياق المقام. يقول الجاحظ: « فإذا رأت مكانه الشعراء و فهمته الخطباء، ومن قد تعبد المعاني و تعود نظمها و تنضيدها و تأليفها و تنسيقها.»[3]

و من هنا نلحظ أنّ الجاحظ لا يختلف في عباراته المستعملة عن مفاهيم علماء اللّغة المحدثين، فهو يرى أنّ التّأليف و التّنضيد و التّنسيق للمعاني يحتاج إلى تعوّد و دربة و تمرّن، حيث تكون هذه العمليّة على المستوى الأفقي للجملة أو بما يسمى بالعلاقات التركيبيّة فالمتكلّم لابد أن يكون مُلِما بقواعد و قوانين اللّغة التّي يتواصل بها، و بالتّالي يتحرّى المواقع الصّحيحة و المناسبة للكلمات التي يستعملها، لأنّ هذه الألفاظ المكوّنة للجملة إذا لم تقع في موقعها، فهذا يعني إخلالا في نظام اللّغة العام التّي يتكلّمها و بالتالي فساد في المعنى المراد توصيله إلى المتلقي ما يُؤدي إلى إعاقة الفهم.

و ما ذكرناه كان مختصرا لما ذكره الجاحظ في شرح هذين المحورين، و ما يُمكن إضافته أخيرا، أنّ الجاحظ كان واعيا بأنّ اللّغة السّليمة و الإبلاغيّة تمكن في حسن اختيار الألفاظ مع حسن توخي التأليف و النّظم.

---

*العلاقات الاستبداليّة: هي العلاقات التي تحقق وظيفتها ضمن إدراك الترابط الذّهني الحاصل بين العلامة اللّغويّة و العلامات التي يمكن أن تحل محلّها مما يمكن أن تتسم معه بشيء مشترك و تترابط معه في الذاكرة مشكلة مجموعات تسودها علاقات مختلفة(ف.سوسير: محاضرات في الألسنيّة العامة، ص149.)

*نعتبر العلاقات التّركيبيّة في نظر دي سوسير علاقات مبنيّة على صفة اللّغة الخطّية تلك التي نستثني إمكانيّة لفظ عنصرين في آن واحد، وهذان العنصران إنّما يقع الواحد منهما لإلى جانب الآخر ضمن السّلسلة الكلاميّة (ف.دي سوسير: محاضرات في الألسنيّة العامة، ص149.)

[1]- ف.دي سوسير: محاضرات في الألسنيّة العامة، ص137.

[2]- ينظر: كريم زكي حسام الدّين، أصول تراثيّة في اللّسانيات الحديثة، ط3، 2001م، ص208.

[3]- البيان و التّبيين، ج4، ص30.

كما نجد أيضا الجاحظ يضع بعض القيود تسمح للشاعر أو النّاثر تنظيم الكلام و تأليفه، و حتى يبلغا هذا عليهما توخي درجة عالية من الفصاحة، وهي صفة راسخة و متمكّنة من نفس المتكلّم تعطيه القدرة على التّعبير و حسن تأليف الكلام و نضمه عما يجول في خاطره من الأغراض و المقاصد، و لن يبلغ شاعر أو ناثر هذه المنزلة إلا إذا كان ملمّا باللّغة كثير الاطّلاع على كتب الأدب، عارفا بأسرار أساليب العرب كما يكون حافظا لعيون كلامهم من شعر جيد و نثر مختار عالما بأحوال الشّعراء و الخطباء.[1]

و نجد أيضا محمّد الصّغير بنّاني يرى أنّ الفصاحة التّي قيل عنها الكثير و تردّد النّقاد في تحديد مفهومها عند الجاحظ و تصنيفها بين علوم اللّسان أو علوم البلاغة، ليست في نهاية الأمر إلا اللّغة ذاتها في مظاهرها الصّوتيّة و البنويّة و النّفسيّة و الاجتماعيّة، فالشّكل المستدير و المغلق للفصاحة في نموذجه الأصغر عند الجاحظ (قبيلة قريش) أو نموذجه الأكبر (الجزيرة العربية) ما هو إلا صورة لنظام اللّغة المستدبر و المغلق كما يتصوّره الجاحظ.

و إذا مثّلنا لمفهوم الفصاحة عند الجاحظ و الفروق الهامّة التّي يجعلها بينها و بين باقي الفنون كالبيان و البلاغة و الشّعر و غيرها، قلنا أنّ الفصاحة بالنّسبة لهذه الفنون كلها كالمعدن بالنّسبة لما يُصاغ منه من حليّ و غيرها، أو كاللّغة التّي تُصاغ منها الرّسائل و القصائد و غيرها.[2]

و هذا هو الفارق الأساسي الذي توصّلت إليه اللّسانيات الحديثة، و نجد أندري مارتيني يوضّح ذلك بقوله: « ...إنّه لمن الضروري أن يُميِّز بوضوح بيت الظواهر اللّسانيّة التّي هي بمنزلة سجل يرجع إليه كل شخص يريد التّبليغ، و علماء اللّسان غير مُطالبين بأن يقولوا لنا أين توجد هذه الظواهر اللّسانيّة في الإنسان و بأيّ طريقة يتوصّل المتكلّم إلى اختيارها طبقا لحاجاته التّبليغيّة لكن لابد من افتراض وجود بنية سيكوفيزيولوجيّة تمّ تكييفها خلال تعلّم الطّفل للّغة.»[3]؛ فكلام مارتيني هذا يُمثّل معدن الفصاحة لدى الجاحظ، فالبنية السيكوفيزيولوجيّة المكيّفة للّغة هي دائرة الفصاحة لدى الجاحظ، فهي تُقيِّد اللّغة و تُسوِّها و تجعلها متكاملة.

كما نجد الجاحظ في موضع آخر يُؤكّد أنّ الوحدة اللّغويّة (الكلمة)، إذا لم تقع في موضعها أحدثت تنافرا بين الوحدات اللّغويّة الأخرى المُؤلّفة للّغة، بالإضافة إلى استثقال اللّسان لها، فيجد مشقّة في النّطق بها «لأنّه إذا كان الشّعر مستكرها، و كانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التّنافر ما بين أولاد العِلات، و إذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أُختها مُرضيا موافقا، كان على اللّسان عن إنشاء ذلك الشّعر مؤونة.»[4]

[1]- أحمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، ط4، 2002م، ص34-35.
[2]- محمّد الصّغير بنّاني: النّظريات اللّسانيّة و البلاغيّة و الأدبيّة عند الجاحظ، ص134-135.
[3]- أندري مارتيني: مبادئ في اللّسانيات العامة، ص24.
[4]- البيان و التّبيين، ج1، ص67.

أما إذا كانت الوحدات اللّغويّة متّفقة واقعة في موضِعها إلى جنب أُختها سهلت المخارج و تباعدت عن التنافر حتى تغدو الكلمة عبارة عن حرف واحد و البيت من الشعر بكامله عبارة عن كلمة واحدة « فأجود الشّعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنّه أُفرغ إفراغا واحدا، و سُبك سبكا واحدا؛ فهو يجري على اللّسان كما يجري الدّهان، و كذلك حروف الكلام و أجزاء البيت من الشعر تراها متّفقة مُلسا و ليّنة المعاطف سهلة، و تراها مختلفة مُتباينة، و متنافرة مستكرهة، تشقّ على اللّسان و تكُدّه، و الأُخرى تراها سهلة ليّنة، و رطبة متواتية، سلسة النّظام، خفيفة على اللّسان؛ حتى كأنّ البيت بأسره كلمة واحدة و حتى كأنّ الكلمة بأسرها حرف واحد.»[1]

يرى محمّد الصّغير بنّاني أنّ هذا الرّبط بين النّظام الحرفي في اللّغة و بين نظامها النّحوي هو الذي نجده تقريبا بنفس العبارة عند أندري مارتيني، بعد أن عرّف اللّغة على أنّها نظام يشتمل على نوعين من الوحدات: وحدات مميّزة هي الحروف ووحدات دلاليّة هي الكلمات[2]. يقول مارتيني: «... فإذا قلنا أنّ لغة ما تتضمّن أربعة و ثلاثين حرفا نعني بهذا أنّ المتكلّم مُجبر في كلّ لحظة من سياق كلامه على اختيار حرف من هذه الأربعة و الثلاثين لإخراج اللّفظ أو الدال الملائم للخطاب الذي يريد إبلاغه.»[3]

و ما قيل عن الحروف يُقال عن الوحدات المركّبة من فارق واحد هو أنّنا لا نستطيع أن نقول فيما يخص اللّغة كم عدد الكلمات التي تتركب منها.

و الملفت للانتباه في قول الجاحظ: « فأجود الشّعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنّه أُفرغ إفراغا واحدا، و سُبك سبكا واحدا... » أنّه شبّه الكلام المنظوم بسبك المعادن و إفراغها و تشكيلها وفق تجانس وحدات المادّة، و حسب تشكيل الصانع لها، أما في الكلام يعني دقّة ربط أجزائه وفق ما يتطلّبه التركيب اللّغوي من نحو و إعراب، فالسّبك عنده يكون بين الحروف أوّلا ثمّ بين الكلمات ثمّ بين الجمل ، هذا يُؤدي إلى التّآلف و التّجانس بين الوحدات اللّغويّة، و بالتّالي سهولة النّطق، «فإذا كان المعنى شريفا، و اللّفظ بليغا، و كان صحيح الطّبع بعيدا عن الاستكراه، و منزّها عن الاختلال مصونا عن التّكلّف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التّربة الكريمة. »[4]

أخيرا يبدو أنّ الجاحظ كان على قدر كبير من الوعي بالّدور الوظيفي الذي يلعبه النّظام اتّجاه وحداته اللّغويّة، و هذا يظهر حينما يؤكّد في أكثر من موضع في البيان و التّبيين إلى أنّ اختيار الألفاظ و تركيبها لابد أن يؤول في نهاية المطاف إلى نظم مسبوك و مؤتلف و موافق لقواعد النّظام، و قواعد الإجبار التّي تفرضها علاقات التأليف لأنّ الكلمات السّابقة تفرض ظروفها على اللاحقة فتقرر ما يُناسبها و تبعد ما يتنافر معها.

إنّ المواضع التّي تعرّض فيها الجاحظ للّغة كثيرة، و قد فتح لها بابا طويلا عنونه بقوله [**باب أن يقول كلّ إنسان على قدر خلقه و طبعِه**] ذاكرا فيه شواهد و أشعار

[1]- المصدر نفسه، ج1، ص67.
[2]- محمّد الصّغير بنّاني: النّظريات اللّسانيّة و البلاغيّة و الأدبيّة عند الجاحظ، ص122.
[3]- أندري مارتيني: مبادئ في اللّسانيات العامة، ص24.
[4]- البيان و التّبيين، ج1، ص81.

كثيرة، و كلّها تهدف إلى إبراز شيء واحد هو علاقة اللّغة بالحياة النّفسيّة و المادّية و التّواصليّة للإنسان[1].

[1]- محمّد الصّغير بناني: النّظريات اللّسانيّة و البلاغيّة و الأدبيّة عند الجاحظ، ص136.

الفصل الثّاني

أهم المبادئ اللسانيّة عند أندري مارتيني

المبحث الأول:أندري مارتيني و البحث اللّساني

1-نبذة عن حياة أندري مارتيني و أعماله:

ولد مارتيني سنة 1908 بمقاطعة السافو بفرنسا، بمنطقة قريبة من هوتفيل التي درس لهجتها فيما بعد، أثرت طفولته التي قضاها في القرى السافوائية الصغيرة فيه كثيرا على المستوى اللغوي، إذ احتك هناك بظواهر الثنائية اللغوية (Bilingistique) الحقيقية التي اهتم بها.[1]

و بعد ما أتم دراسته العليا اشتغل بالتدريس في بعض ثانويات باريس، حيث كان من حسن حظه إتباع دروس بعض مشاهير اللسانيات من أمثال موسيه (mossi)، فندريس(vendryes) وميي(meillet)، نال شهادة الدكتوراه في دراسة اللغات الجرمانية سنة: 1937، وأصبح مديرا للدراسات الفونولوجية بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا في عام: 1938، وفي الحرب العالمية الثانية ألقي عليه القبض وأودع السجن، فاغتنم الفرصة هناك وألف كتابا قيما بعنوان: " نطق الفرنسية المعاصرة "، معتمدا في ذلك على أربعمائة رواية.[2]

كان مارتيني بين عامي: 1932و 1938على صلة منهجية و شخصية برؤساء فونولوجيا براغ، خاصة بتوبتسكوي، سامسون، وكان صديق هلمسليف، تابع مارتيني تطورات المذهب الغلوسيماتيكي، وكانت أطروحته الثانية للدكتوراه عبارة عن دراسة فونولوجيا الكلمة في اللغة الدنمركية من: 1946إلى 1955 في الولايات المتحدة الأمريكية، واطلع على نظرية سابير اللسانية(E.sapir) بلومفيلد(Bloomfield)، ترأس عام 1946 إدارة مجلة الكلمة (Word)، واستمر في منصبه هذا حتى عام 1960وأصبح منذ عام 1947 أستاذا في قسم علم اللغة في نيويورك و عاد إلى فرنسا عام1955، وشغل منصب رئيس قسم اللغة العام في معهد علم اللغة في السربون، وفي المدرسة التطبيقية للدراسات العليا حتى عام1955م، وكان قد أشرف على نشر أعمال معهد علم اللغة في باريس(Travaux de linguistique)، وأدار مجلة علم اللغة للتعبير عن وجهات نظر علم اللغة.[3]

من أهم مؤلفاته:

1- التصنيف الصامتي للأصل التعبيري في اللغات الأجنبية سنة 1937.
2- نطق الفرنسية المعاصرة.
3- الفونولوجيا كنوع من الصوتيات الوظيفية.
4- مبادئ الألسنية العامة.
5- اللسان و الوظيفة.
6- وظيفة الألسن و ديناميتها.

[1]- ميشال زكرياء:الألسنية:المبادئ و الأعلام، المؤسسة الجامعيّة للدّراسات و النّشر و التّوزيع، ط2، 1993.

[2]- المرجع نفسه ،ص 252.

[3]- أحمد مومن: اللسانيات النشأة و التطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص152.

ويعتبر أندري مارتيني زعيم المدرسة الوظيفية من خلال الأسس التي شرحها في كتابه: مبادئ في اللسانيات العامة.[1]

1-1- وصف مدوّنة أندري مارتيني " مبادئ في اللّسانيات العامة ":

إلى جانب كتاب "البيان و التّبيين" يمثّل المُؤلَّف الموسوم بـ"مبادئ في اللّسانيّات العامّة" يمثّل مدوّنة للبحث الذي نحن بصدده.

و هو كتاب صاحبه أندري مارتيني مترجم من اللّغة الألمانيّة إلى العربيّة، محتفظ ببعض المصطلحات الألمانيّة و الفرنسيّة، قام بترجمته "السعدي زبير" كما وُجد مترجم آخر ترجم الكتاب هو "أحمد حمو"، فهذان المترجمان تختلف ترجمتهما لبعض المصطلحات مع العلم أنّ المعنى يبقى نفسه.

و قد اعتمدنا في بحثنا هذا، الكتاب الذي ترجمه "سعدي زبير"، يحوي 192 صفحة، الصّادر في دار الآفاق بالجزائر، و لم تذكر طبعته.

يحوي الكتاب مقدّمة للمترجم إضافة إلى مقدّمة أندري مارتيني المترجمة، و كذا تقديما للقارئ العربي، إضافة إلى مدخل و ستّة فصول، و قد استهلّه صاحبه في الفصل الأوّل بوصف اللّسانيات و اللّغة و اللّسان، و تحدّث في سياق كلامه عن اللّغة ووظائفها، و ذكر الوحدات الدّالة و عدد الوحدات الصّوتيّة، كما ذكر أنّ لكلّ لغة تقطيعها الخاص. أما الفصل الثاني فخصّه لوصف الألسن، لينتقل إلى الفصل الثالث الذي عنونه بالتّحليل الصّوتي، و قد قسّمه إلى خمسة محاور، استهلّ المحور الأوّل بالحديث عن وظائف العناصر الصّوتيّة، و المحور الثاني تحدّث فيه عن تقطيع الأصوات، أما المحور الثالث فقد تحدّث فيه عن النّغميّة، و كذا تحدّث أيضا عن التّفاضل و استعمال الوحدات الصّوتيّة على التّوالي في المحورين الرابع و الخامس.

كما قد خصّ الفصل الرابع بعنوان الوحدات الدّالة المقسّم أيضا لخمسة محاور تطرّق في الأربعة الأولى إلى: تحليل الأقوال، تدرّج الوحدات الدّالة، البسط، النّسقيّة و تصنيف الكلمات. أما المحور الخامس عنونه بالأعراف و الاستعمالات اللّسانيّة الذي تعرّض فيه إلى تباين و تعدد البنى اللّسانيّة الاجتماعيّة، لينتقل في الأخير إلى الفصل السادس تحت عنوان تطوّر الألسن و قد تطرّق في محاور هذا الفصل إلى التّغيير اللّساني و التّغيير اللّساني، و الاقتصاد في اللّغة ثم الانتقال ثمّ انتقل إلى محور آخر تناول فيه الإخبار و التّواتر و الكلفة، كما تعرّض لنوعيّة الوحدات، و حركيّة الأنظمة الصّوتيّة، و ختم كتابه بثبت المصطلحات.

[1]- شفيقة العلوي: محاضرات في المدارس اللّسانية المعاصرة، بيروت، ط1، 2004، ص17.

2-1- وصف كتاب "وظيفة الألسن و ديناميّتها":

كتاب "وظيفة الألسن و ديناميّتها"، كتاب آخر لأندري مارتيني، مترجم هو الآخر من الألمانيّة إلى العربيّة على يد الباحث اللّساني اللّبناني نادر سراج الذي قام بتعريبه عام 1996 في بيروت لبنان، و قام بإصداره في دار المنتخب العربي.

يحوي الكتاب 304 صفحة، تتصدّره مقدّمة المترجم و مقدّمة للمؤلّف للطّبعة العربيّة، إضافة إلى مقدّمة الكتاب التي تضمّنت فكرة أساسيّة التي تتمثّل في محاولة مارتيني أن يقدّم تصوّرا عاما لمفهوم الرؤية الوظيفيّة للوقائع اللّغويّة، كما يقدّم تصوّر آخر عن التّطبيقات العمليّة لهذا المفهوم.

يعتبر هذا المؤلّف من أهم المراجع التي اعتمدنا عليها في بحثنا، و قد تميّز بمنهجيّة تجمع بين العمق و البساطة في عرض مبادئ اللّسانيات الوظيفيّة. قُسِّم الكتاب إلى ستّة فصول، استهل صاحبه الفصل الأوّل بعرض الألسنية الوظيفيّة، و قد اشتمل على خمسة محاور. كما ضمّ الفصل الثاني الموسوم ب: تعلّم الكلام و تعلّم القراءة خمسة محاور أيضا, أما الفصل الثالث، فقد ضمّ الحديث عن تباين الألسن و ضروب استعمالها، لينتقل إلى الفصل الرابع تحت عنوان الوحدات التّمييزيّة و قد اشتمل على محورين الأوّل يدخل في نطاق الصّواتة و الثاني تضمّن الوظيفة و التّقطيع في النّغميّة. أما الفصل الخامس و السّادس فقد تطرّق فيهما إلى الحديث عن المعنى و ما علينا فهمه من التّضمين. و أنهى كلّ فصل بمجموعة من الملاحظات، وختم عرض الكتاب بمسرد فرنسي و عربي للمصطلحات.

2-المدرسة الوظيفية (L'école fonctionnaliste)

كان انتشار أفكار ديسوسير* أثرها البالغ في ميدان الدراسة الحديثة,مما أدى بالمدارس المنبثقة بعده إلى دراسة الظواهر اللسانية من أوجه عديدة،و من بين هذه المدارس المنبثقة من أفكار سوسير نجد:المدرسة الوظيفية.

في أربعينيات القرن الماضي شهد التصدي لما يسمى الوظيفة النحوية،و هذا ما جعل هذه المدرسة تنحو منحى التعمق في دراسة الوظائف ،و ما هي إلا فرع من فروع البنوية بيد أنها ترى أن البنى النحوية و الدلالية و الفونولوجية للغات تتحدد بالوظائف التي تؤديها في المجتمع.[1]

*فرديناند دي سوسير(F-Desaussure)مؤسس علم اللّغة الحديث(اللّسانيات)،ولد عام 1857وفي سنة 1881 كُلف بالتدريس بمعهد الدّروس العليا بباريس مدة 10 سنوات،سنة 1891 عاد إلى جنيف و شرع في التدريس بجامعتها،توفي سنة 1913،من مؤلفاته مذكرة في النظام البدائي في اللّغات الهندوأوروبية ،وأطروحة تحت عنوان:استعمال المظاف المطلق في اللّغة السّنسكريتية وبعد وفاته طبع له تلامذته محاضراته تحت عنوان: دروس في اللسانيات العامة.

[1]- أحمد مومن: اللسانيات النشأة و التطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، ص136.

و برزت هذه المدرسة إلى الوجود و تشكلت ملامحها انطلاقا من مدرسة براغ ،التي تأسست على يد اللساني التشيكي:فيلام ماتسيوس* (Mathesieus)،والذي اجتمع حوله نخبة من الباحثين المهتمين بالدراسات اللسانية،و من ضمن هؤلاء نجد الأعضاء الروسيون الثلاثة: تروبتسكوي(Troubetzkoy*)، كارسيفسكي(Kerenski) وجاكبسون*(Jakopson)،فلقد أسهم هؤلاء في تكوين المدرسة رغم صعوبة ظروفهم؛ فالتسمية إذن لا تشير الى المحلية ولكنها تستخدم استخداما علميا لتشمل تلك النظرة الخاصة التي اتصفت بها هذه المدرسة في التحليل اللغوي ألا و هي: النظرة الوظيفية.[2]

فهذه المدرسة قامت برسم علم جديد وهو:علم الفونولوجيا*، كما نجدها تهتم مثلا: بالصوتيات الوظيفية، التحليل الوظيفي...

<u>ما معنى المدرسة الوظيفية؟</u>: سميت بذلك لأن الباحث بها يحاول الكشف ما إذا كانت كل القطع الصوتية التي يحتوي عليها النص أو الشكل اللغوي تؤدي وظيفة في التبليغ أم لا؛ أي أنه يبحث عن القطع التي تلعب دورا هاما في التمييز بين المعاني، فهي بذلك تتخذ المعنى مقياسا هاما في تحليلها للنصوص اللغوية، وتعتبر أن المعنى يتغير بتغير اللفظ، و يثبت بثبوته.

وكان لمدرسة براغ الصدى الكبير في الأواسط اللسانية العالمية، و لدى عدد كبير من منظري ومثقفي العصر، من بينهم مؤسس اللسانيات الفرنسية: أندري مارتيني[1]، الذي انصبت جل اهتماماته حول العديد من المفاهيم الأساسية المتعلقة بالوظيفة كغاية و مفهوم، والذي صقلت من خلاله المدرسة مبادئها ومفاهيمها في فرنسا من خلال إرسائه لنظريته الفونولوجية. ويهدف مارتيني من خلال نظريته هذه إلى تفسير تطور اللغة باستعمال مصطلحات بسيطة لا غموض فيها مثل: الجملة، الفونيم، اللفظ، الصفة المميزة، مركزا على مبدأ أساسي في دراسته للغة وهو: الوظيفة في اللغة أثناء عملية التبليغ والتواصل.[2]

اهتم أندري مارتيني بشكل خاص بالدراسات الصوتية، وعلى عكس مدرسة براغ، التي فصلت بين الصوتيات والفونولوجيا ونسبت الأولى إلى العلوم الإنسانية والثانية إلى العلوم البحتة، جمع مارتيني بينهما وجعل الفونولوجيا صوتيات وظيفية، و

---

* - فيلام ماتسيوس1882-1945:واحد من ألمع العلماء ليس في اللسانيات فحسب،بل في اللّغة و الأدب الانجليزي أيضا،أسس بمعية معاونيه نادي براغ اللّساني،شغل منصب أستاذ اللّغة الانجليزية بجامعة كارولين الأمريكية،عام1911 نشر نداءه الأول لمنهج جديد غير تاريخي لدراسة اللّغة بعنوان:"حول كومونية الظواهر اللّغوية.

* - نيكولاي تروبتسكوي1890-1948:أحد أعضاء مدرسة براغ خارج تشيكوسلوفاكيا،بدأ حياته بدراسة الفلسفة و التراث الشعبي القوقازي و الفينوأوغري،درس اللّسانيات الهيندوأوروبية بجامعة والده بموسكو،ثم أصبح عضوا في هيأتها التدريسية عام1917،أشهر مؤلفاته:مبادئ علم الأصوات الوظيفي و مبادئ الفونولوجيا1939.

* - رومان جاكبسون، ولد بموسكو،اهتم منذ سنواته الأولى باللّغة و اللّغات و الفولكلور،هو من مؤسسي نادي براغ اللساني،هذا بعد اطلاعه على أعمال سوسير ،و حافظ على دراسة المناهج اللّغوية البنوية في دراسة الأدب.

[2] - هيام كردية: الألسنية رواد و أعلام، بيروت لبنان، ط1، 2010، ص129.

* - علم الفونولوجيا:العلم الباحث في الوظيفة العامة للأصوات الأوّلية ضمن التركيب المشكل لسلسلة الكلام داخل عملية التواصل،و تهتم بدراسة الأصوات و وظائفها داخل التراكيب و السّياقات الصوتية.

[1] - هيام كرديّة: الألسنيّة رواد و أعلام، ص129.

[2] - أحمد مومن: اللسانيات النشأة و التطور، ص153.

أعاد إليها البعد الزّماني لتفسير الظواهر الصوتية، ولكنه أرجع ذلك إلى عوامل داخلية، لا تخرج عن إطار اللغة[1]، لاعتقاده بأن اللغة نظام آلي ينظم نفسه بنفسه، و تتحكم فيه المبادئ التي تستجيب إلى متطلبات الحد الأدنى من الجهد و الوضوح التام أثناء عملية التبليغ متأثرا بنظرية الاقتصاد، وغايته من دراسة التغير الصوتي، هو مفهوم الفائدة الوظيفية للتقابل الفونولوجي.

3-مفهوم الوظيفة:

أ- لغة:

اتخذ مفهوم الوظيفة عند العرب معان متعددة، هذا ما نجده في المعاجم وقد جمعها ابن منظور في لسان العرب بقوله: " الوظيفة من كل شيء ما يقدر له في كل يوم من رزق؛ أي طعام، أو علف أو شراب، وجمعها الوظائف والوظف، ووظف الشيء على نفسه، وظفه توظيفا، ألزمه إياه، وقد وظفت له توظيفا على الصبي كل يوم، حفظ آيات من كتاب الله عزّ وجل، والوظف لكل ذي أربع: ما فوق الوسغ إلى مفصل الساق".

وقدم أيضا تعريف الجوهري: "الوظيف مستدق الذراع و الساق من الخيل و الإبل ونحوهما، والجمع الأوظفة ".

وأضاف لنا أيضا تعريفا للأصمعي بقوله: " يستحب من الفرس أن تعرض أوظفة رجليه وتحدب أوظفة يديه، ووظفت البعير إذا أقصرت قيده وجاءت الإبل على وظيف واحد إذا اتبع بعضها بعضا كأنها قطار، كل بعير رأسه عن ذنب صاحبه ".[2]

ورد أيضا في المعجم الوسيط و استدراكات المستشرقين "وظف" هي: "وظائف شاغرة، إعلانات عن وظائف خالية، توظيف، تشغيل، تعيين، توظيف المال و استثماره ".[3]

وفي مختار الصّحاح مثله في اعتبار الإلحاق و الإتباع معنى من معاني الوظيفة.[4]

ما يمكن أن نلحظه على هذه المعاني، أن كلمة الوظيفة و إن تعددت معانيها فإنها لم تخرج عن كونها ما لازم الشيء، وأصبح جزءا منه، أو ما اعتاده الكائن و لم يستطع التخلي عنه، سواء أكان في تركه ضرورة، هلاك أو لم يكن ذلك.

[1]- المرجع نفسه، ص153.
[2]- ابن منظور الأنصاري: لسان العرب، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، ج2، 1993، ص764.
[3]- محمد محمّد داوود: المعجم الوسيط و استدراكات المستشرقين، دار غريب للطباعة، مصر، ط1، 2006، ص
[4]- الرازي: مختار الصحاح، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، دار الطبع، 2003، ص342.

ب-اصطلاحا:

يتحدد مصطلح الوظيفة عند البنويّين خاصة عند أندري مارتيني ، بكونه الدور الذي تؤديه وحدة ما في البنية النحوية للعبارة(énoncé)، حيث أن كل عنصر من عناصر هذه العبارة ينظر إليه على أنه عنصر مشارك في معناه العام[1]. ويعد مفهوم الوظيفة متداولا في عام اللسان الحديث، فقد كانت نشأته لحاجة ابستيمولوجية* ومنهجية أدت بالدراسة البنوية إلى تبني مبدأ الشرح و التفسير بناءا على أن الاهتمام بمبدأ الوظيفة (Principe de fonction)في دراسة حالة لغة مستقلة عن أي اعتبار تاريخي يمكنها من أن تحصل على قيمة تفسيرية(Valeur explicative) و ليس فقط وصفية (descriptive)[2]

لم يقتصر مفهوم التحليل الوظيفي للغة على المستوى البنيوي فقط، بل أصبح متنوع الدلالة و الاتجاه بتنوع الدراسة اللسانية المعاصرة، الأمر الذي جعل مفهومه انسيابيا ينطلق منه اللسانيين في مختلف مذاهب علم اللسان الحديث،لكن بأغراض و توجهات منهجية و ابستيمولوجية مختلفة متناقضة أحيانا[3].

و قد تبنت المدارس المنبثقة بعد دي سوسير هذا المصطلح في أربعينيات القرن الماضي كمدرسة براغ، التي اعتبرته أساسا محوريا يأخذ مكانه في عنوان الدراسة ذاته. كقولنا: وظيفية مدرسة براغ، ووظيفية أندري مارتيني.

4-مفهوم اللغة:

أ- لغة:

ورد في المعجم الوسيط: لغي في القول: لغّا ولغَا، وبالأمر: أولع به ، وبالشيء لزمه، فلم يفارقه، وبالماء و الشراب، أكثر منه، وهو بذلك لا يروى، والطائر بصوته نغم.

واللّغة أيضا: أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم(ج)لُغًى، ولغات، ويقال سمعت لغاتهم، اختلاف كلامهم.[4]

يعرفها ابن جني بقوله: " أما حدها، فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ".[5]

فحد اللغة عند ابن جني أمور ثلاثة:

---

[1]- Jean dubois et autre ,Dictionnaire de linguistique,page:216.

*- الابستومولوجيا: أو فلسفة العلوم،علم يقوم على فحص مناهج العلماء و تقديمها و تحليل عناصر البناء العلمي ككل، و تناول مشكلات العلم من جوانبها المختلفة.

[2]- الطيب دبه: مبادئ في اللّسانيات البنوية، دراسة تحليلية ابستيمولوجية، جمعية الأدب للأساتذة الباحثين، 2001، ص101.

[3]- المرجع نفسه، ص101.

[4]- المعجم الوسيط: مجمع اللّغة العربية، مصر، 2004، ص831.

[5]- ابن جني: الخصائص، ج1، ص22.

- اللغة عبارة عن أصوات.
- اللغة وسيلة للتعبير عن أغراض القوم.
- تنوع اللغات و تعددها بحسب أقوامها و متكلّميها.

ويعرفها أيضا ابن سنان الخفّاجي بقوله: " اللغة هي ما يتواضع القوم عليه من الكلام ".[1]

ويعرفها ابن الحاجب بقوله: " حد اللغة، كل لفظ وضع لمعنى ".[2]

تركز التعريفات السابقة على أمور أساسية نذكرها:

- اللغة عبارة عن اصطلاح و اتفاق بين متكلّميها.
- اختلاف الاصطلاح و الاتفاق باختلاف الأقوام.
- اللغة وضعت للدلالة على المعاني.
- أصوات اللغة و مفرداتها محدودة و متناهية.

ب- اصطلاحا:

يرى مارتيني أن مصطلح اللغة يشير بالضبط في المتداول من الكلام، إلى الملكة التي يستعملها البشر للتفاهم فيما بينهم بواسطة الأدلة الصوتية، فاللغة مؤسسة بشرية ناجمة عن العيش في المجتمع، دورها الأساسي التبليغ و التواصل، إلا أنها ليست موحدة في المجتمعات الإنسانية؛ فهي تختلف من مجتمع لأخر ، فمارتيني يرى أن اللغة وحيدة بالنسبة لوظيفتها، مختلفة من مجموعة إلى أخرى.[3]

يقول مارتيني: " فاللسان أداة تبليغ يتم وفقها تحليل التجربة البشرية بكيفية مختلفة عند كل قوم، إلى وحدات ذات محتوى دلالي و مركب صوتي هي: الكلمات، وإن المركب الصوتي يتقطع بدوره إلى وحدات متمايزة و متوالية هي: الصّويتات، و تكون بعدد محدود في كل لسان إلا أن طبيعتها و علاقتها المتبادلة مختلفة من لسان إلى لسان ".[4]

ويبدو واضحا أن مارتيني يركز على وظيفة هامة في اللغة، و هي التبليغ و التواصل بين متكلّميها، و التي تسمح بعكس التجربة الشخصية للفرد كما يوضح من خلاله أنه يمكن تقسيم اللغة إلى تمفصل أوّل و هو: المونيمات(الكلمات) التي بدورها تنقسم إلى فونيمات(أصوات) ومورفيمات (مقاطع صرفية)، التي تشكل بدورها التّمفصل الثاني، و إذا

[1]- ابن سنان الخفّاجي: سر الفصاحة، ج1، ص22.
[2]- ابن الحاجب: المزهر، ج1، ص08.
[3]- أندري مارتيني: مبادئ في اللّسانيات العامة، تر سعدي زبير، دار الأفاق، ص13-14.
[4]- المرجع نفسه،ص:24.

جمعنا الفونيمات مع بعضها البعض كوّنا المونيمات، كما يوضح أن اللغّات في المجتمعات الإنسانية تختلف من مجتمع إلى أخر.

المبحث الثاني: مبادئ الدّراسة الوظيفية عند أندري مارتيني.

ينطلق مارتيني في دراسة الوظيفة للغّة من مبادئ متعددة نحصيها كالتالي:

1- وظيفة اللّغة (Fonction de la langue)

يؤكد مارتيني على كون التبليغ و التواصل، الوظيفة الأساسية للّغة، كونها تسمح لكل إنسان أن يبلغ تجربته الشخصية لغيره من الناس، فاللّغة مرآة عاكسة للمجتمع و معبرة عنه.

هذا إلى جانب وظائف أخرى تؤديها اللّغة، لا ينفيها مارتيني، بل يقرّ بها، إلا أنه يعتبرها ثانوية كوظيفة التعبير عن الأفكار، ووظيفة التعبير عن المشاعر دونما حاجة إلى التواصل، و الوظيفة الجمالية في النصوص الأدبية و غيرها، إلا " أن التبليغ أي التفاهم المتبادل هو الجدير بالاعتبار كوظيفة مركزية لهذه الوسيلة التي هي اللّسان ".[1]

يتجلى المظهر الوظيفي للّغة عند مارتيني بشكل عام في اعتقاده أن اللّغات ليست مجرد نسخ للأشياء كما هي في الواقع، أو حفظ قائمة مسميات جديدة بلغة أخرى[2]، إنما هي تنظيم خاص لمعطيات التجربة الإنسانية[3]، أي أن اللغة ليست مجرد وضع أسماء لمسميات، وإنما هي بُنى تركيبية منظمة تعكس كلّ منها نظرة خاصة لعالم الأشياء، والمحسوسات و التعوّد على اكتساب نظرة تحليلية للواقع بطريقة مختلفة.

2-التقطيع المزدوج (La double articulation)

يقرّر مارتيني أن أهم ميزة يتميز بها اللّسان البشري عن سائر الأنظمة الإبلاغية الأخرى هي في كونها قابلة للتقطيع المزدوج[4]، و هي ميزة تخص كلّ اللّغات البشرية، فكل الألسنة قابلة للتقطيع المزدوج بوصفها نظام تواصلي يتم من خلاله إيصال الأفكار و المشاعر للآخرين، و هو ينصّ على أن تحليل الوحدات اللّغوية يتم على مستويين:

أ-التقطيع الأوّل (La première articulation)

هو الذي تنتقل من خلاله التجربة إلى الغير حيث تحلّل هذه التّجربة إلى وحدات متسلسلة لكلّ منها دال و مدلول، و تسمى هذه الوحدات بالمونيمات(les monèmes) أو الوحدات اللّسانية الدّالة، وهي غير قابلة لأن تتجزأ إلى أصغر وحدات ذات دلالة. يقول مارتيني في هذا الشأن: " فالتقطيع الأول للّغة هو ذلك الذي يقوم على أن كلّ ظاهرة من ظواهر التّجربة البشرية نريد تبليغها، أو كل حاجة من حوائجنا نود تعريف غيرنا بها تحلل إلى متوالية من الوحدات لكل منها صورة صوتية و معنى "[5]، أي دال و مدلول.

---

[1]-أندري مارتيني: مبادئ في اللّسانيات العامة، ص15.
[2]- الطيب دبه: مبادئ في اللّسانيات البنوية دراسة تحليلية ابستيمولوجية، ص106.
[3]- أندري مارتيني: مبادئ في اللسانيات العامة، ص17.
[4]- أندري مارتيني: وظيفة الألسن و ديناميتها، تر نادر سراج، دار المنتخب العربي، بيروت لبنان، ط1، 1996، ص155.
[5]- أندري مارتيني: مبادئ في اللسانيات العامة، ص18.

و يضيف بعد التمثيل لنا قاله سابقا: " إن التقطيع الأول هو الطريقة التي بها ترتب التجربة المشتركة لدى كلّ أعضاء مجموعة لسانية معينة، و انه لا يُمكننا أن نقوم بعملية التبليغ إلا في إطار هذه التجربة، و التي تكون موقوفة بالضرورة على ما هو مشترك بين عدد هائل من الأشخاص ".[1] أي أن التقطيع الأول للّغة يمكننا من الحصول على الوحدات الصغرى الدّالة التي بدورها تقبل التقطيع إلى وحدات أصغر غير دالة، و هذه الأخيرة لا تقبل التجزئة. و نمثل لهذا التّمفصل الأول بالمتوالية التالية: (كتب الطالب مقالتين)، فهي تتكون من خمس مونيمات لها دلالة، تنقسم على هذا النحو:

كتب / ال / طالب / مقال / ين.

تدلّ على التثنية

تدلّ على التعريف

و نُورد أيضا المثال الذي ذكره مارتيني في كتابه: "مبادئ في اللّسانيات العامة"، وهو كالتالي: (J'ai mal à ⇦tête) يوجعني رأسي.

و هذه المتوالية هي الأخرى تقطع إلى ستة مونيمات لها دلالة على النحو الأتي:

J / ai / mal / à / la / tête

يرى مارتيني أنه يمكن التعبير عن الألم بالصّراخ، إلا أنه وحده لا يكفي ليكوّن تبليغا لسانيا، كون الصّراخ غير قابل للتحليل و التقطيع، فالتلفظ بجملة (J'ai mal à la tête) تناسب أكثر التعبير عن الألم و تجسده، كما أن كلّ وحدة من وحدات هذه العبارة، تمثل معنى مغاير و صورة صوتية أخرى حين ورودها مستقلة، أو في سياق أخر، إلا أن اجتماعها على هذا النّسق الذي وردت فيه هو الذي يعطيها المعنى الذي تحمله. كما يرى مارتيني في هذا المستوى من التقطيع لا يمكن تجاوز هذا الحد من التحليل، لأنه لا يمكن أن نضفي إلى / te / و/ tê / معنيين متمايزين يكون مجموعهما مساوٍ ل / tête /[2]

ب-التقطيع الثاني (La deuxième articulation)

هو المستوى الناتج عن تقطيع المونيمات إلى وحدات أصغر هي الفونيمات(les phonèmes)، أو المسماة بالوحدات غير الدّالة، وتظهر عند التحليل داخل الوحدات الدّالة، و نمثل هذا بكلمة(مقال).

في المثال السابق، فهذه الكلمة هي وحدة دالة حين خضوعها للتقطيع الأول، بوصفها أصغر وحدة دالة في جملة (كتب الطالب مقالين)، لكن حين تجزئتها وفقا للتقطيع الثاني إلى وحدات غير دالة، تظهر على هذا النحو:

/ م/ َ / ق / اَ / ل /

[1]- المرجع السابق،ص18-19.

[2] - A.Martinet :Elément de linguistique générale ,page:14-15.

وكذا نلحق هذا المثال بمثال من كتاب مارتيني، حيث يرى أن كلمة têteعدد وحداتها ثلاثة يمكن تشخيصها بين خطين مائلين كالتالي:/tet/ هذه الوحدات غير قابلة للتحليل إلى أقل من هذا،و لكن صورتها الصوتية قابلة للتحليل إلى متوالية من الوحدات تساهم كلّ واحدة منها في تمييز/têtе/ عن /bête/ و /tante/ مثلا[1]

و من ثم فان لهذه الفونيمات وظيفة تمييزية،و قد يطلق عليها اسم الوحدات التمييزية(les unités discrètes)، لأنّه تغيرها أو تغيّر إحداهما يتغير المعنى و يتميز، بمعنى أن مجموع هذه الفونيمات هي التي تميّز كلمة ما عن الوحدات الأخرى[2].

يرى مارتيني أن مبدأ التقطيع المزدوج يُعد سمة بارزة من شأنها أن تميز وحدات اللّسان البشري(القطع الصَوتية)عن أصوات الحيوان، و عن سائر الأنظمة الإبلاغية الأخرى التي تعتمد على وحدات ذات دلالات محددة و نهائية[3]، إضافة إلى أن هذا المبدأ ذو قيمة لسانية إذ يمنح للّغة القدرة على التعبير ن الأفكار و المعاني المجردة بواسطة هذا العدد المحصور من الفونيمات(أي الأصوات و الحروف)، و هذا ما يؤسس الاقتصاد اللّغوي في اللّسانيات.إضافة إلى هذا، يرى مارتيني أن كلّ الألسن خاضعة للتقطيع الذي شرحناه سابقا، لكن هذا لا يعني أن هذه الألسن لا تلجأ إلى وسائل غير خاضعة لإطار التقطيع المزدوج كالصّيغة الاستفهامية مثلا فهي عبارة عن ارتفاع نغمي للصوت في أخر المفردة[4]، و تسمح بالتمييز بين الإخبار و الاستفهام، فمثلا في عبارة(il pleut) و(? il pleut)التي أوردها في كتابه، فالأولى هي عبارة عن إخبار و إثبات بأن المطر ينزل، أما الثانية التي تحوي على علامة استفهام هي عبارة عن تساؤل، وهي تؤدي نفس المعنى في قولنا ? est ce que il pleut و قد أغنى الارتفاع النغمي(الاستفهام) في عبارة(il pleut) عن ذكر أداة الاستفهام(est ce que)[5]، وحلّ المنحى التنغيمي محل الأداة، لكن معنى الاستفهام يبقى مفهوما من السّياق العام.

و الملاحظ هنا هو أن أداة الاستفهام(est ce que)قابلة للخضوع للتقطيع الأول بوصفها دالا يحتل موقع خاص في الكلام، و للتقطيع الثاني بتوالي أصواته، غير أن الاستفهام الذي حلّ محلّها غير خاضع لهذا التقطيع لأنّه يظهر فقط أثناء ملية النطق، و قد أطلق عليه مارتيني: الوحدات ما فوق المقطعية (suprasegmentaux).

و نخلص مما سبق ذكره إلى أن اللّغة الطبيعية قابلة للتحليل إلى:

1- مستوى المونيمات: و هي الوحدات الدّالة التي تقبل التحليل إلى وحدات أصغر عديمة الدّلالة.
2- مستوى الفونيمات: و هي الوحدات الصوتية الدّنيا التي ليست لها دلالة في ذاتها و قادرة على تغيير المعنى.
3- الوحدات ما فوق المقطعية: تظهر فقط أثناء النطق.

[1] -A.Martinet :Elément de linguistique générale ,page:15.

[2]- أندري مارتيني: مبادئ في اللسانيات العامة، ص19.

[3]- الطيب دبه: مبادئ اللّسانيات البنوية دراسة تحليلية ابستيمولوجية، ص108.

[4]- أندري مارتيني: مبادئ في اللسانيات العامة، ص19.

[5] -- A.Martinet ,Elément de linguistique générale, page:21.

3-الاقتصاد اللغوي(Economie Linguistique)

يقوم هذا المبدأ في بنية اللّغة على أساس العلاقة بين بنية اللّغة من جهة، التي هي عبارة عن وحدات محدودة،

ووظيفة اللّغة من جهة أخرى هي مجال واسع لا حدود له يسمح بالتعبير عن متطلبات حياة البشر من حاجات[1].

يرى مارتيني أن هذا المبدأ يمكّن القيام بوظيفة التواصل بأقل جهد ممكن سواء بدنيا أو ذهنيا، و يساعده على ذلك مبدأ التقطيع المزدوج، حيث أنه يتيح القيام بالعملية التواصلية برمتها بواسطة عدد محدود من الفونيمات التي تسمح بتشكيل عدد لا متناهي من المعاني و التراكيب متنوعة الدّلالة بتنوع تجارب المتكلمين[2]، و في هذا الصدد يُقر مارتيني أن الاقتصاد اللّغوي يكمن في التقطيع الثاني بشكل أوضح، إذ يقول: " و يمكننا أن نلاحظ ما يمثله التقطيع الثاني من اقتصاد: فإذا كان علينا أن نجعل لكل وحدة دالة دنيا ما يناسبها من إنتاج صوتي خاص و غير قابل للتحليل فانه يلزمنا أن نميز بين الآلاف منها، و هذا ما لا يتوافق لا مع القدرات النطقية و لا مع حاسة السمع للكائن البشري "[3]، فالتقطيع الثاني يُمكننا من تبليغ معان مختلفة بتبديل أو تغيير صوت أو فونيم واحد، و يتضح ذلك في نظام اللّغة العربية كثيرًا فمثلا: حلم،سلم،علم... فقد أدى تغيير فونيم واحد فقط إلى تغيير في معاني هذه الوحدات.

فالاقتصاد اللّغوي ناجم بصفة مجملة عن التقطيعين في إيصال أكبر قدر من المعلومات في أقل جهد ممكن، لذلك فلكل لسان تقطيعه الخاص فمثلا في اللّغة العربية يقول العربي: (يوجعني رأسي) في حين يقول الفرنسي:(j ai mal a la tête) (عندي وجع في الرأس) ففي الحالة الأولى يكون المفعول به هو: المتكلم، أما في الحالة الثانية يكون مركز الألم هو: الرأس، و عبارة الألم هي اسمية في اللّغة الفرنسية و فعلية في العربية، و مجمل العبارة الأولى و الثانية أن هناك صداع[4].

4- مبدأ الفضيلة (Trait de pertinence)

ينطلق مارتيني لتحديد مفهوم الملاءمة، من أن كل علم له سماته الخاصة التي تتلاءم و البحث فيه، « ففي علم الحساب على سبيل المثال تعتبر الأعداد بمثابة السّمات المناسبة فيما يتعلق بهذا العلم، و في علم الهندسة يكون التركيز على أشكال هندسية التي هي السّمات الواجب دراستها»[5]، و الشأن نفسه بالنسبة للّسانيات إذ يجب أن تُستخرج الوحدات التي تلائم البحث و التحليل، و تهمل بقية السّمات التي لا فائدة منها من الدّراسة و لا تسهم في تحديد مستوياتها، و عليه فإن " اختيار وجهة النظر الوظيفية يستمد من الاعتماد الرّاسخ بأن كلّ بحث علمي يتأسس

[1]- الطيب دبة: مبادئ في اللّسانيات البنوية دراسة تحليلية ابستيمولوجية، ص108.
[2]- أندري مارتيني: مبادئ في اللّسانيات العامة، ص21.
[3]- المرجع نفسه، ص19.
[4]- المرجع نفسه، ص22.
[5]- ميشال زكريا: ألسنية عربية، المؤسسة الجامعية للدّراسات و النشر و التوزيع، ط1، بيروت، 1992،ص256.

إثبات ملاءمة ما،و أن الملائمة التواصلية هي التي تسمح بشكل أفضل في فهم طبيعة دينامية اللّغة "[1].

5-مفهوم الجملة:

لا تقتصر وظيفة العناصر اللّغوية على العلاقات الموجودة بينها، بل - أيضا – على موقع كلّ عنصر في البنية اللّغوية، هذا يعني أن المونيمات يجب أن تنتظم انتظاما صحيحا حتى تظهر وظيفة تركيبية لكل مونيم، و قد جعل مارتيني التركيب الاسنادي هو نواة الجملة التي يعرفها بقوله: " أنها القول الذي ترتبط فيه جميع العناصر بمخبر فريد أو بعدة مخبرات معطوفة "[2]، و هو التعريف الذي يركز فيه على الطبيعة التسلسلية للوحدات اللّغوية المكونة للجملة.

[1]-أندري مارتيني: وظيفة الألسن و ديناميتها، ص97.
[2]-أندري مارتيني: مبادئ في اللّسانيات العامة، ص118.

المبحث الثّالث: مبادئ التحليل الوظيفي عند مارتيني.

1) على مستوى الكلمة:

ينطلق أندري مارتيني في تحليله لوحدات العبارة من مبدأ التفريق بين وظائفها،و ذلك حتى يتمكن من وضع إطار تحليلي نموذجي تخضع له جميع الوحدات على ما يقتضيه نظام بنائها التركيبي،فانتبه الى مجموعة من المبادئ و هي كالتالي[1]:

1-1-العلاقات القائمة بين الوحدات:قيمة المونيم الدّلالية و الوظيفية لا تتحدد إلا في علاقته بالمونيمات الأخرى في نفس السّياق.

1-2-موضع الوحدات: يرى مارتيني أن موضع الوحدات اللّغوية يؤدي إلى جانب صلة بعضها ببعض، دورا تمييزيا واضحا في تحديد وجهة العبارة و التمييز بين وظائف وحداتها[2]. مثلا في العبارة التّالية: (pierre bat Paul)، إذا قابلنا موضع الوحدات(Paulوpierre) فإن المعنى سيتغير، وفي عبارة أخرى (je partirais demain)، في هذه الحالة إذا غيرنا ترتيب الوحدات، فإن المعنى لا يتغير، ومنه استنتج مارتيني أن الموضع لا يؤدي دورا تمييزيا دائما.

1-3-المحتوى الدّلالي للوحدات: يرى مارتيني أن مراعاة معنى الوحدات اللّغوية من أجل تحديد وظائفها أمر ضروري في التحليل، ولكنه مع ذلك يحذر من الأخطاء التي يمكن أن يتعرض لها الباحث اللساني عندما يهتم دون حذر بمجال الدّلالة[3]. ومن الكلمات التي يرى مارتيني أن معناها كاف لتحديد وظيفتها بوضوح، ظروف الزمان(أمس،غدًا،اليوم...)التي يسميها بالمونيمات المستغنية، وهي ما سنتناوله فيما يلي.

و في ضوء هذه المبادئ، وقياسا على ما تقتضيه معطيات النظام النحوي في كلّ لغّة، أخذ يقسم الوحدات باعتبار وظائفها إلى أصناف:

1-1-3- من حيث أنها مونيمات: قسمها إلى ثلاثة أصناف:

1 - المونيم المكتفي (le monème autonome)

هي الوحدات الدالة التي لا ترتبط بشيء أخر للدلالة على وظيفتها، أي أنها تتضمن في بنيتها دليل وظيفتها، و تتمثل في الظروف مثل:(اليوم،غدًا،أمس...)و طبيعة العلاقة الرابطة بين هذه اللّفاظم المكتفية و غيرها قائمة على أساس دلالتها الذاتية، لا على أساس الموقع الذي ترد فيه في التركيب[4]، فمثلا لفظم (اليوم) في جملة (سافر علي اليوم) غير مقيد بهذا الموقع، إذ يمكن أن يظهر في مواقع أخرى كالتالي:

سافر اليوم علي.

---

[1]- الطيب دبه: مبادئ في اللّسانيات البنوية، دراسة تحليلية ابستيمولوجية، ص109.

[2]- أندري مارتيني: مبادئ في اللّسانيات العامة، ص97-98.

[3] -A.Martinet, Elément de linguistique générale ,page:33-34.

[4]- أندري مارتيني: مبادئ في اللّسانيات العامة، ص100-101.

علي سافر اليوم.

2 - المونيم الوظيفي (le monème fonctionnait)

هي اللّفاظم التي تساعد على تحديد وظيفة عناصر أخرى لا يمكن لها أن ترد مستقلة في السّياق، مثل الوظيفة التي تؤديها حروف الجر في اللّغة العربية، فيكون دورها ضبط العلاقة التركيبية لهذه العناصر غير المستقلة، و كلمة وظيفة هنا تشير إلى الحدث اللّساني الذي يتطابق مع العلاقة بين عناصر التجربة، والتجربة في مجملها[1].

3 - المونيم التّابع (le monème dépendent)

هو ذلك المونيم الذي لا هو مكتفي و لا هو وظيفي، و يسمى تابعا لأنه لا يحقق وظيفته إلا بتبعيته لغيره من الوحدات، فهو يرتبط بعبارة ما، إما بفضل مونيم وظيفي، و إما بفضل موضعه النسبي إلى جانب بقية الوحدات في هذه العبارة[2].

1-3-2- من حيث أنها تراكيب:

1- التركيب المكتفي (syntagme autonome)

يعرفه مارتيني بأنه ائتلاف لكلمتين أو أكثر لا ترتبط وظيفته بموضعه من القول، بل بدلالته الكلية و صلته بالسياق[3]، بمعنى أنه تركيب يتألف من مونيمين أو أكثر تكون العلاقة بينها وثيقة جدًا لا ترتبط وظيفتها بموقعها في العبارة أو بدلالة كل وحدة منها بل بالدّلالة الكلية لهذه الوحدات و علاقتها بالسّياق.

2- التركيب الاسنادي(syntagme prédicatif)

هو التركيب الذي يمكنه أن يشكل خطايا بمفرده بحيث يكون دائما مستقلا خلافا للمكتفي أو الوظيفي الذي لا يستطيع أي منهما أن يستقل بنفسه ليشكل خطابا. مثلا في عبارة(hier ,il y'avait fête au village)

نجد في هذا المثال لفظا مكتفيا بذاته(hier)، و أيضا تركيبا مكتفيا بذاته(au village)، و هما هنا تكملة تلحق بالتركيب الاسنادي المستقل(il y'avait fête)، و هو قادر على إنشاء رسالة بذاته دون إضافات أو إلحاقات[4]، و من هنا يمكن القول أن التركيب الاسنادي هو النواة التي تقوم عليها العبارة، و ترتبط بها الوحدات بصفة مباشرة أو غير مباشرة، و يتكون التركيب الاسنادي من مُسند prédicat و مُسند إليه sujet.

[1]- أندري مارتيني: مبادئ في اللّسانيات العامة، ص102.
[2]- المرجع نفسه، ص107-108.
[3]- المرجع نفسه، ص102.
[4]- المرجع نفسه، ص111-112.

3- الإلحاق(Expansion)

يُعرفه مارتيني بأنه: " كلّ عنصر مضاف إلى قول لا يُغير العلاقات المتبادلة بين عناصره الموجود مُسبقا كما لا يغير وظائفها "[1]. بمعنى أنه كلّ ما يُضاف الى المُركب الاسنادي أو ما يتصل به، و لا تتغير به العلاقات المتبادلة بين وحداته و لا وظائفها. و هو يشبه مفهوم الفُضلة في النحو العربي. و قد ميّز مارتيني بين نوعين من الإلحاق:

3-1- الإلحاق بالعطف(Coordination)

يقول مارتيني: " يكون البسط بالعطف عندما تتطابق وظيفة العنصر المضاف مع وظيفة العنصر السّابق الوجود في نفس النطاق، بحيث يمكن استعادة بناء القول الأصلي إن نحن أسقطنا العنصر السّبق الوجود، و لم نترك إلا العنصر المضاف(...)و يكون له نفس بنية القول الأولى "[2]، بمعنى أن الكلام فيه يبقى مطابقا في بنيته للجملة النواة بعد حذف العنصر الأولي(المعطوف عليه).

3-2- الإلحاق بالتعلق(Subordination)

يقول مارتيني: " يتم البسط بالتعلق بكون وظيفة العنصر المضاف لا تُستعاد في عنصر سابق الوجود في نفس النطاق. يشار إلى هذه الوظيفة، إما بموقع العنصر الجديد بالنسبة للوحدة التي إزاءها يقوم هذا العنصر بوظيفته، و إما بواسطة كلمة مضيفة "[3].

بمعنى أن الإلحاق بالتبعية يتميز فيه العنصر الملحق بوظيفة تختلف عن وظيفة العنصر الأولي (المتبوع) و يمكن توضيح ذلك بالمثال التالي: (فأمر له بجائزة عظيمة)، ففي هذه العبارة لا يجوز حذف العنصر الأولي(جائزة) و ذلك لأن وظيفته التركيبية تختلف عن العنصر التابع (عظيمة).

4-المزج(Amalgame)

هو الربط بين دالين ليصبحا دالا واحدا، فاللفظة الممتزجة ظاهرة لغوية انتبه إليها مارتيني و وجدها تُشكل صعوبة عند تحليل العبارة إلى مونيمات، فإذا كان المسار الطبيعي للتحليل هو اكتشاف سمات الدور التميُزي من حيث هو قطعة صوتية دالة مختلفة فونولوجيًا عمّا يمكن أن يكون عليه غيرها، ومتماثلة مع مدلول واحد، فقد يمكن أن تكون القطعة الصوتية ممزوجة، وذلك عند وجود مدلولين متداخلين في مدلول واحد، مما يُعيق عملية التحليل إلى قطع متوالية[4]. ويُمثل أندري مارتيني لذلك: "بالمدلول(a) و المدلول (le) للدّليلين à و le، دالاهما هو عامة على التوالي /a/ و /i/ في (il est à paris)و في (le chapeau) مثلا، و لكن عندما تلتقي العلامتان في موضع واحد في سلسلة الكلام و

[1]- أندري مارتيني: مبادئ في اللّسانيات العامة، ص115.
[2]- المرجع نفسه، ص116.
[3]- المرجع نفسه، ص116.
[4]- الطيب دبه: مبادئ في اللّسانيات البنوية دراسة ابستيمولوجية، ص112.

تكونان متبوعتين بصامت، فإنهما يتخذان دالًا واحدًا غير قابل للتحليل هو(au)، و مثال ذلك أن يُقال: je vais au marchéالذي أصله: je vais a le marché [1].

2) على مستوى الجملة:

يُحدد مارتيني الجملة بأنها كل عبارة ترتبط جميع وحداتها بمُسند وحيد، أو بمسندات مترابطة[2]. وهو ينطلق في تقسيم وحداتها، مثلما سبق الإشارة إليه إلى أصناف من المونيمات والتركيبات منها ما يمثل نواة الجملة أي التركيب الاسنادي ومنها ما يُمثل ملحقا لها.

و قد خلص مارتيني، أثناء دراسته للتركيب الاسنادي و لإطاره النموذجي في التحليل، إلى أن اللّغات تستعمل في غالب الحالات تركيبا يجمع بين وحدتين على الأقل، و يتكون هذا التركيب عادة من :

-المسند: و هو الذي يحمل فحوى الخطاب، ويحدده مارتيني على أنه المونيم الأساسي في التركيب.
- المنجز: وظيفته جعل المسند ناجزًا بحيث يصلح أن يُشكل جملة، فمثلا كلمة:(العطلة) لا يمكنها أن تشكل جملة بمفردها، فهي بحاجة إلى كلمة أخرى تجعل منها خطابا، و يتحقق هذا بإضافتنا لها كلمة (غدًا) فنحصل على التركيب التالي[3]:

العطلة غدًا.
↓ ↓
المسند المنجز

إضافة إلى هذا اكتشف مارتيني أن بعض الجمل يكون فيها التركيب مختصرا في مونيم واحد مثل: الفعل اذهب بالفرنسية(va) و(vite) سريعًا، و(ici) هنا، وهي خطابات تُستعمل في حالة السب و الشتم، و يُؤدي فيها المونيم خطابًا كاملا دون الحاجة إلى منجز لأنها تستند الى المقام، بحيث يكفي في تحليلها الرجوع إليه[4].

و بهذا نخلص إلى أن العناصر المكونة للجملة عند مارتيني هي:

-المسند:(prédicat): و هو المونيم المركزي في التركيب الاسنادي، و يُشكل عند مارتيني وحدة خاصة تتلاقى عندها جميع العلاقات المؤدية لوظيفة التبعية.
- المنجز:(actualisateur) أو ما يُعرف بالمسند إليه (sujet)، و هو الركن الثاني من التركيب الاسنادي، ويكون حسب اللّغات إمّا مورفيما كما في (il March) (يمشي)، أو وحدة معجمية كما في (l'homme marche) (الرجل يمشي). أو يجمع بين كونه مورفيما و وحدة معجمية، و من جانب ثاني يمكن للمسند إليه أن يكون مونيما وظيفيا أو

[1]- أندري مارتيني: مبادئ في اللّسانيات العامة، ص92.
[2] -A.Martinet ,Elément de linguistique générale ,page:131.
[3]- الطيب دبه: مبادئ اللّسانيات البنوية دراسة ابستيمولوجية، ص188.
[4]- المرجع نفسه، ص189.

تركيبا مكتفيا، لكنه لا يكون تابعا لأن التابع ليس جزءًا من التركيب الاسنادي، و من جانب ثالث يمكن للمسند إليه أن يتميز عن الفضلات، بوصفه المونيم الذي يكون وجوده إجباريا في الجملة[1].

- الإلحاق:(Expansion) وهو الفونيم الذي لا يكون أساسيا في الجملة، ومن دونه يظّل التركيب الاسنادي مستقلاً.

3- أنواع الوحدات التركيبية (Unités syntaxiques)

تتخذ الوحدات التركيبية أشكالا مختلفة، فتارة تكون مجرد ألفاظ بسيطة، و تارة تكون ألفاظ من نوع خاص، وأخرى تكون فيها مؤلفة من جزئين نوردها كالتالي:

3-1- اللّفظة البسيطة (Monème simple)

هي الوحدة الدُّنيا للتقطيع الأوّل مزودة بدال و مدلول، و يمكن استبدالها بوحدات أخرى على المحور الاستبدالي في المحيط نفسه[2].

3-2- اللّفظة العدمية الصفرية(Monème Zéro)

هي غياب شكلية متوقعة و يرمز إليها أثناء التحليل بعلامة تفاضلية على شكل(0)، و يتضح ذلك في اللّغة المكتوبة بوجود علامتين شكليتين هما: الفتحة و التاء المربوطة في المؤنث، وغيابهما مع المذكر. مثل: معلمٌ Ø معلمةٌ، و كما تتجلى في الأفعال مثل: كتبَ Ø كتبَت.[3]

3-3- اللّفظة المفروقة(Monème disiontune)

هي عكس المزج، فيها يتجزأ الدّال إلى جزئين أو أكثر لتحديد مدلول واحد غير قابل للتجزئة[4]. مثل: (ارتدت الممرضة مئزرها) نجد في هذا المثال ثلاث علامات تدل على التأنيث، و تكمن في (ت) في ارتدت، و(ة) في الممرضة، و(ها) في مئزرها.

3-4- اللّفظة المشتركة

هي دال واحد يتقاسمه مدلولان أو أكثر، و لا يمكن استقلالها بمدلول واحد يحدده السّياق.مثلا صيغة المضارع في الفعل (تأخذ) نجدها مع ضمير المخاطب (أنتَ) تأخذُ، و مع ضمير الغائب (هي) تأخذ.

3-5- الصّيغة الاتحادية

[1]- المرجع نفسه، ص189.
[2]- نعمان بوقرة: المدارس اللّسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، 2004، ص 111-112.
[3]- المرجع نفسه، ص:113.
[4]- المرجع نفسه، ص:112.

هي الوحدات القابلة للتحليل من حيث الشكل و المعنى إلى مدلولين أو أكثر، إلّا أنهّا تتركب لتشكل وحدة واحدة و تتحدد لأداء وظيفة واحدة مثل:جواز السّفر، أم كلثوم...[1]. فقد تكون مضاف إليه، صفة و موصوف، أسماء مركبة، أو صيغة جامدة، و هي تعامل معاملة اللّفظة الواحدة و ليس كلّ لفظة على حدة.

و قد تأثّر مارتيني بأفكار سوسير، خاصّة مبدأ التّركيب و التّخيير، حيث يتّضح محور التّركيب عند مارتيني على مستوى التّقطيع الأوّل حيث تحلّل العبارة اللّغويّة إلى متوالية من الوحدات الصّوتيّة و معنى.[2] و هي لا تقبل التّحليل إلى وحدات أدنى منها، فوحدات التّقطيع الأوّل هي الكلمات أو الألفاظ التي تحمل معنى و مضمون.

أما محور التّخيير، فيرى مارتيني أنّ الأحداث لا يمكن تحديدها إلا بمقارنة أقوال التّجربة البشريّة المختلفة، حيث يمكن القول أنّ السامع يمكن له بحكم تجربته أن يحدّد الاختيارات المتتاليّة التي كان قد قام بها المتكلّم قبل تلفّظه.[3]

[1]- المرجع نفسه، ص:113.
[2]- أندري مارتيني: مبادئ في اللّسانيات العامة، ص18.
[3]- المرجع نفسه، ص28-29.

الفصل الثّالث

الدّرس الصّوتي عند الجاحظ و أندري مارتيني

لطالما شغل الدّرس الصّوتي اهتمام اللّغويّين، فقد كانت أولى المحاولات في وصف الصّوت اللّغوي وصفا علميّا دقيقا عند علماء اللّغة الهنود، وهي محاولات أثارت إعجاب العلماء الغربيّين عند اكتشافها، فولّد لديهم الرّغبة في الاطلاع أكثر على هذا العلم و تقصّي حقائقه، أدّى بهم هذا إلى تأسيس نظريات عدّة كانت أشهرها النّظريّة الفونولوجيّة عند أندري مارتيني.

و لم تقل جهود علماؤنا العرب شأنا في هذا المجال، فقد كانت جهودهم تجاري الهنود في مجال الدّرس الصّوتي، و كان حافزهم الأوّل وراء ذلك الحفاظ على القرآن الكريم من اللّحن، و كذا الحفاظ على النّطق السّليم، لذلك كانت جهودهم جبارة في محاولة إثراء الدّرس الصّوتي و تطويره.

المبحث الأوّل: الدّرس الصّوتي لدى الجاحظ

1- مفهوم الصّوت:

أ- لغة:

يقول ابن فارس في مادة (صوت):« الصاد و الواو و التّاء أصل صحيح و هو الصّوت، وهو جنس لكلّ ما وقر في أذن السّامع، يقال هذا صوت زيد، و رجلٌ صيِّتٌ إذا كان شديد الصّوت، و صائت إذا صاح.»[1]

يقول الراغب الأصبهاني في المفردات في غريب القرآن: « الصّوت هو الهواء المنضغط عن قرع جسمين... »

ثمّ يُضيف قائلا: « النّطق في المتعارف: الأصوات المقطّعة التّي يظهرها اللّسان و تعيها الأذن. قال تعالى:«مالكم لا تنطقون» و لا يكاد يقال إلاّ للإنسان، و لا يقال لغيره إلاّ على سبيل التبع نحو الناطق و الصّامت، فيراد بالنّاطق ماله صوت و بالصّامت ما ليس له صوت. و لا يقال للحيوان ناطق إلا مقيّدا و على سبيل التّشبيه.»[2]

إذا فالصّوت هو الأثر السّمعي النّاتج عن جهاز النّطق عند الإنسان، أو احتكاك و اصطدام جسمين.

ب-اصطلاحا:

قدم الجاحظ في البيان و التّبيين دراسة علميّة للأصوات، كما عالج بعض القضايا الصّوتيّة، و أولى هذه القضايا تحديد مفهوم الصّوت اللّغوي، إذ يقول: « و الصّوت هو آلة اللّفظ و هو الجوهر الذي يقوم به التّقطيع، و به يوجد التأليف، و أنّه لن تكون حركات اللّسان لفظا و لا كلاما موزونا و لا منثورا إلا بظهور الصّوت.»[3]؛ فالصّوت إذا مظهر خارجي للّغة و ليس جزءا منها، فهو مجرّد وسيط أو ناقل للّغة، و اللّغة مستقلّة عن الوسيلة

[1]- ابن فارس: معجم مقاييس اللّغة، مادة لسن.
[2]- الرّاغب الأصبهاني: المفردات في غريب القرآن، ص425-426.
[3]- البيان و التّبيين، ج1، ص89.

الّتي تتحقّق بها[1]، و بهذا يتلبّس مصطلح الصّوت عند الجاحظ في هذا السّياق معنى الإظهار ليصبح صفة تتّصل باللّسان و القدرة على النّطق السّليم.[2]

فالإظهار أو البيان هنا عمليّة أو خاصّية تتّصل بالصّوت و القدرة على النّطق السّليم، لذلك قال الجاحظ أنّ الصّوت هو آلة اللّفظ... و أنّه لن تكون حركات اللّسان لفظا أو كلاما إلا بالصّوت.

و قد خصّ الجاحظ اهتماما كبيرا بتحديد مفهوم الصّوت اللّغوي، و عقد لذلك فصولا في كتابه، و يكمن خلف هذا الاهتمام دواعٍ كثيرة، تتمثّلها أقسام كلامهم بالتّشدّق و القامة، لذا كانوا يمدحون جهارة الصّوت الذي هو مظهر أصالتهم، بحيث إذا سُئل أحدهم عن الجمال: قال طول القامة، ضخامة الهامة، و رحب الشّدق، و بعد الصّوت[3]، و أيضا: مثل الصّوت القلم أجدر بأن يخص الذهن على تصحيح الكتاب من استعمال اللّسان على تصحيح الكلام[4]؛ فكما يظهر الحبر الكلام المكتوب، يظهر الصّوت الكلام المنطوق.

2- أنواع الأصوات اللّغويّة:

لكلّ شعب لغة خاصّة به يعبّر من خلالها عن حاجاته الفرديّة و الجماعيّة و ذلك بأن أنعم الله على الإنسان بالجهاز النّطقي الذي يستطيع من خلال حركة أجزائه تزويد المتكلّم بعدد لا حصر له من الأصوات.[5] و من تمام خلق الله أنّ الشّعوب البشريّة اختلفت فيما بينها في إمكانيات الجهاز النّطقي مما أدى إلى اتّفاق اللّغات الإنسانيّة في بعض أصواتها و اختلافها في بعضها الآخر، تبعا لاختلافها في استخدام إمكانيات الجهاز النّطقي المتعدّد، و هذا ما أدركه الجاحظ في قوله: « و لكلّ لغة حروف تدور في أكثر كلامها، كنحو استعمال الرّوم للسّين، و استعمال الجرامقة للعين، و قال الأصمعي: ليس للرّوم ضاد و لا للفرس ثاءٌ، و لا للسرياني ذال»[6]

لهذا فإنّ المغلاق* الذي يستعصي عليه الكلام، يظهر في كلامه اللّغة الّتي ينتمي إليها، يقول الجاحظ:« و قد يتكلّم المغلاق الذي ينشأ في سواد الكوفة بالعربيّة المعروفة و يكون لفظه متخيّرا فاخرا، و معناه شريفا كريما، و يعلم مع ذلك السّامع لكلامه و مخارج حروفه أنّه نبطيٌّ، و كذلك إذا تكلّم الخراساني على هذه الصّفة فإنّك تعلم مع إعرابه و تخيّر ألفاظه في مخرج كلامه أنّه خراساني، و كذلك إن كان في كتاب الأهواز.»[7]

و أتى كذلك على ذكر طائفة من النّاس يتّسمون بالقدرة على محاكاة و تقليد ألسنة (لغات) الآخرين، يقول الجاحظ: « و مع هذا فإنّنا نجد الحاكية* من النّاس يحكي ألفاظ

---

[1]- فوزي الشايب: محاضرات في اللّسانيات، منشورات وزارة الثقافة، الأردن، 2004، ص45.
[2]- يُنظر: عبد الحكيم راضي، الأبعاد الكلاميّة و الفلسفيّ في الفكر البلاغي و النّقدي عند الجاحظ، ص98.
[3]- البيان و التّبيين، ج1، ص120-121.
[4]- المصدر نفسه، ج1، ص80.
[5]- عيسى عودة برهومة: تمثّلات اللّغة و المجتمع في البيان و التّبيين، الجامعة الهاشميّة، الأردن، ص8.
[6]- البيان و التّبيين، ج1، ص69.
*المغلاق هو الشخص الذي يستعصي عليه الكلام
[7]- البيان و التّبيين، ج1، ص69.
* الحاكية يُراد به الذي يحكي كلام النّاس، ويفعل مثلهم في الحديث.

سكان من اليمن مع مخارج كلامهم، لا يُغادر من ذلك شيئا، و كذلك حكايته حكاية الخرساني و الأهوازي، والزّنجي والسّندي والأجناس... نعم حتى تجد أطبع منهم...»[1]؛ فتمكن و تهيّؤ الحاكية لجميع مخارج الأئمّة يعود في نظر الجاحظ لما أعطاه الله من الاستطاعة، و كذا طول و تعوّد استعماله لها ذلّت جوارحه لها[2]، و متى ترك شمائله على حالها و لسانه على سجيّته كان مقصورا على هذه الجملة من مخارج الألفاظ، و صور الحركات و السّكون فأما حروف الكلام فإنّ حكمتها إذا تمكّنت في الألسنة خلاف هذا الحكم.« ألا ترى أنّ السّندي إذا جلب كبيرا فإنّه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زايا و لو أقام في عليا تميم، و في سفلى قيس، و بين عجز هوازن، خمسين عاما و كذلك النّبطيّ القُحّ، خلاف المغلاق الذي نشأ في بلاد النّبط، لأنّ النّبطيّ القحَّ يجعل الزاي سينا، فإذا أراد أن يقول زورق قال سورق، و يجعل العين همزة، فإذا أراد أن يقول مُشمَعِل قال مُسْمَئِل »[3]

و يتّضح من خلال هذا النّص بعض أوجه الاختلاف بين الأمم و بعض أصواتها أثناء التأدية.

و من ثمّ يأتي بعد ذلك إلى ذكر أوجه التّشابه بين بعض الأمم في أصوات معيّنة على نحو ما تجتمع عليه لكنات الفرس و النّبط و الرّوم من جعل الحاء هاءاً، فيقول: « و صهيب بن سنان يرتضح لكنة روميّة، فيقول إنّك لهائن و هو يريد إنّك لخائن(هالك)، و عبيد الله بن زياد يرتضح لكنة فارسية و قد اجتمعا على جعل الحاء هاءاً... »[4]

بالإضافة إلى هذا، يأتي الجاحظ إلى ذكر بعض أصوات الحيوان ليدلل على إدراكه أنّ للحيوان جهازاً صوتيًّا يُماثل الجهاز النّطقي عند الإنسان[5]، إذ راح يذكر تسمية بعض الطّيور و الحيوانات بالأصوات التي تصدر عنها، و ذلك « القطا من الطّيور سمِّيت بهذا الاسم نسبة إلى صوتها. إذ يقول: قطا قطا... كذلك الكلاب يتهيّأ من أفواهها العينات و الفاءات و الواوات، فتقول: وَوْ وَوْ عَفْ عَفْ.»[6]

و بناءا على هذا يفسِّر الجاحظ قدرة الإنسان على محاكاة بعض الأصوات فيما ينقله عن الهيثم بن عدي الذي يذكر أنّه قيل لصبي من أبوك؟ فقال: وَوْ وَوْ و ذلك أنّ أباه يُسمّى كلبا.[7]

و هو الأمر الذي أثبتته العلوم الحديثة، ألا و هو إمكانيّة تقليد الإنسان لبعض الأصوات، لاسيّما أصوات الحيوان.

و الجدير بالذّكر أيضا ما ذهب إليه الجاحظ في تشخيص الحرف تشخيصا علميّا، فهو يعرف أنّ بعض الحروف أكثر دورانا في الكلام من بعضها الآخر، فالرّاء أكثر دورانا في الكلام، لذا امتنع واصل بن عطاء من حرف كثير الدّوران في الكلام و يُقصد به الرّاء[8]،

[1]- البيان و التّبيين، ج1، ص 69.
[2]- المصدر نفسه، ج1، ص69.
[3]- المصدر نفسه، ج1، ص70.
[4]- المصدر نفسه، ج1، ص 72.
[5]- عيسى عودة برهومة: تمثّلات اللّغة و المجتمع في البيان و التّبيين، ص9
[6]- البيان و التّبيين، ج1، ص64.
[7]- البيان و التّبيين، ج1، ص64.

الرّاء[1]، كما أنّ اللام و الياء أكثر تردّدا من غيرها، و الحاجة إليها أشدّ، و هذا ما تُؤيّده التّجربة العلميّة «بأن نأخذ عدّة رسائل و عدّة خطب من جملة خطب النّاس و رسائلهم، فإنّك متى حصّلت جميع حروفها و عددت كلّ شكل على حِدة علمت أنّ هذه الحروف الحاجة إليها أشد.»[2]

و هذه الملاحظة التي تتبّعها الجاحظ و غبرها كثير، أشبه بتشخيص الحرف، و قد أشرع ذلك الباب أمام الجاحظ للاهتمام بدراسة المخارج و هو يعلم بأنّ المخارج لا تحصى و لا يوقف عليها.[3]

3- مخارج الأصوات:

درس الجاحظ المخارج الصّوتيّة للكلام بدقّة فائقة مبيّنا حقيقتها، و مفصّلا عيوبها و آفاتها بصورة مسهبة، إذ لم يدع مجالا للاستزادة، فضلا عن كونه قام بتقديمها و شرحها مستعينا بنوادر مسلّية و نكات مستملحة، و التّي قام بتقديمها كأمثلة بيّنة على ملاحظاته العلميّة في باب التّقطيع الصّوتي و النّطق بالحروف. و هو حين يستعمل المخرج للدلالة على الحرف الواحد يقول: « و إنّ مخرج ذلك منه شنيع»[4]، كما يستعمله لدلالة على المخرج العام لجميع الحروف، و يُعطيه حينها صبغة النّظام الذي تجري فيه اللّغة، كما يستعمله مرتبطا بمصطلحات أخرى نحو مغلاق، تهيّؤ، طبيعة، فصاحة و لغة.[5]

كما قدّم بعض الملاحظات التّي سجّل بها سبقا على علم اللّغة الحديث في دراسته للصّوتيات، إذ راح يتتبّع تطوّر المخرج عند الصّبيّ، الذي هو عبارة عن جِرم يتفتَّح شيئا فشيئا مع نُموِّ الطفل. يقول فيما ينقله عن الخارجي « دخل على عبد الملك بن مروان ابن له صغير ضربه المعلّم و هو يبكي، فهمَّ عبد الملك بالمعلِّم، فقال له الخارجي:دعوه يبكي فإنّه أفتح لجِرمه* و أصحُّ لبصره، وأذهب لصوته»[6] و يتفتّق كلّما كلّما تقدّم في العمر[7]، فيقول عن إسماعيل: « و أوّل من فُتِقَ لسانه في العربيّة المبينة إسماعيل و هو ابن أربع عشرة سنة.»[8]

كما يذكر الجاحظ مراحل تطوّر المخرج بالتّفصيل عند الصّبيّ حدَّ اكتماله و أخذه شكله النّهائي عند بلوغه، موضّحا ذلك بأمثلة و كذا ذاكرا لمختلف العاهات التي قد تصيب المخرج، و التّي قد يكون بعضها مؤقّتا يزول بتكلّف صاحبه جهدا في ذلك، و قد يكون البعض الآخر مزمنا لا يُفارقها.

---

[1]- المصدر نفسه، ج1، ص16. لمزيد من الإيضاح ينظر: محمّد الصّغير بنّاني: النّظريات اللّسانيّة و البلاغيّة و الأدبيّة عند الجاحظ، ص114.
[2]- البيان و التّبيين، ج1، ص22.
[3]- محمّد الصّغير بنّاني: النّظريات اللّسانيّة و البلاغيّة و الأدبيّة عند الجاحظ، ص115-116.
[4]- البيان و التّبيين، ج1، ص14.
[5]- محمّد الصّغير بنّاني: النّظريات اللّسانيّة و البلاغيّة و الأدبيّة عند الجاحظ، ص115.
*الجِرم: بكسر الجيم و هو الحلق.
[6]- البيان و التّبيين، ج1، ص259.
[7]- المصدر نفسه، ج1، ص293.
[8]- المصدر نفسه، ج1، ص290.

و قد أشار محمّد الصّغير بنّاني أنّ مختلف هذه الحالات التي يمرُّ بها تطوّر المخرج، ليست حالات للجهاز الصّوتي فحسب، و لكن هي أيضا صورة للمخرج الذي هو نظام اللّغة.[1]

و من الأصوات التي وقف عندها الجاحظ و بيّن مخارجها نجد:

أ- الميم و الباء:

و ذلك في قوله: «الميم و الباء أوّل ما يتهيّأ في أفواه الأطفال، كقولهم ماما و بابا، لأنّهما خارجان عن عمل اللّسان و إنّما يظهران بالتقاء الشّفتين.»[2]، فذكره للشّفتين يدلّ على على أنّهما من الأصوات الشّفويّة، و هما خارجان عن عمل اللّسان، و هو المخرج المتّفق عليه بين اللّغويّين القدماء و المُحدثين.

ب- الضاد:

يقول الجاحظ: « فأما الضاد فليس يخرج إلا من الشّدق* الأيمن، إلاّ أن يكون المتكلّم أعسر يُسرا مثل عمر بن الخطّاب –رضي الله عنه- فإنّه كان يُخرج الضّاد من أيّ شِدقيه شاء. فأما الأيمن و الأعسر و الأضبط فلا يمكنهم ذلك إلا بالاستكراه الشّديد.»[3]

و الضّاد منذ أوّل وقوف للعرب عليها و هم مختلفون في مخرجها، إذ يذهب سيبويه* على أنّها « من بين حافة اللّسان و ما يليه الأضراس مخرج الضاد.»[4]

و في علم اللّغة الحديث عند النّطق بها " ينطبق اللّسان على الحنك الأعلى مُتّخذا شكلا مقعّرا."[5]

و إذا كان الجاحظ قد لاحظ مخرج هذين الحرفين من بين حروف العربيّة، وذلك لصعوبة تحديد المخرج من غير امتلاك القدرة على رصدها رصدا دقيقا فاكتفى بما استطاع أن يصفه لينتقل بعد ذلك ليقدّم ملاحظة في غاية الدّقّة يحدّد فيها مخرج الهواء.[6] فيقول: « و و كذلك الأنفاس مقسومة على المنخرين فحالا يكون في الاسترواح و دفع البخار من الجوف من الشّق الأيمن، و حالا يكون من الشّق الأيسر، و لا يجتمعان على ذلك في وقت إلا أن يستكره ذلك مستكره أو يتكلّف متكلّف، فإما إذا ترك أنفاسه على سجيّتها لم يكن إلا كما قالوا.»[7]، و تبقى هذه الملاحظة وحيدة في مجال وصف مخرج الهواء و لم يُلحِقها

---

[1]- محمّد الصّغير بنّاني: النّظريات اللّسانيّة و البلاغيّة و الأدبيّة عند الجاحظ، ص118.

[2]- البيان و التّبيين، ج1، ص62.

*الشّدق: جانب الفمّ مما تحت الخدِّ

[3]- البيان و التّبيين، ج1، ص62.

* سيبويه(148ه،180ه): هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، الملقّب بسيبويه، إمام النّحاة و أوّل من بسط علم النّحو، أخذ النّحو و الأدب عن الخليل بن أحمد الفراهيدي و أبي الخطّاب الأخفش، من آثاره الكتاب.

[4]- سيبويه: الكتاب، تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1982، ص432-433.

[5]- إبراهيم أنيس: الأصوات اللّغويّة، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، 1995، ص48.

[6]- عيسى عودة برهومة: تمثّلات اللّغة و المجتمع في البيان و التّبيين، ص11.

[7]- البيان و التّبيين، ج1، ص62-63.

بأُخرى تُوضِّح علاقة مخارج الحروف بمخارج الهواء، أو علاقة هذه المخارج ببعض الأصوات الأنفيّة.

4- عيوب الصّوت النّطقي:

نظرا للأهميّة التّي أعطاها الجاحظ للصّوت، نجده تحدّث بإسهاب عن العيوب و الشوائب التي تلحق الصّوت أو الجهاز الصّوتي، الأمر الذي يُؤدي إلى الإخلال بالفهم و الإبلاغ.[1]

و في لفتة ذكيّة من الجاحظ استطاع أن يُدرك أنّ الجهاز الصّوتي يتكوّن من أعضاء ثابتة، وأخرى متحرّكة، و ذلك حين أشار إلى أنّ أيّ إصابة في الأسنان أو في بعضها يُؤدّي إلى اضطراب في الأصوات. فقال: « لو عرف الزّنجي فرط حاجته إلى ثناياه* في إقامة الحروف، و تكميل آلة البيان لَمَا نزعَ ثناياه، و قال عمر بن الخطاب –رحمه الله- في سهيل بن الخطيب:" يا رسول الله انزع ثنيَّتيه السّفليتين حتى يَدْلَعَ* لسانه، فلا يقوم عليك خطيبا أبدا."»[2]

و يُمثِّل للاضطراب بسبب نزع الثّنايا من المتكلّم بقوله: « و قال خلاّد بن يزيد الأرقط: خطب الجمحي خطبة نكاح أصاب فيها معاني الكلام، و كان في كلامه صغير يخرج من موضع ثناياه المنزوعة، فأجابه يزيد بن علي بن الحسين بكلام في جودة كلامه، إلاّ أنّه فضله بحسن المخرج و السّلامة من الصّفير فذكر عبد الله بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر، سلامة لفظ زيد لسلامة أسنانه، فقال في كلمة له:

قلّت قوادحها* و تمَّ عديدها فله بذلك مزيّة لا تنكر

و يروي صحّت مخارجُها و تمّ حروفها. المزيّة: الفضيلة. »[3]

كما يرى الجاحظ مستندا في ذلك إلى العديد من الأمثلة و البراهين أنّ سقوط جميع الأسنان أصلح في الإبانة عن الكلام و الوضوح في الصّوت من سقوط بعض الأسنان، نذكر منها قول محمّد بن عمرو الرّومي مولى أمير المؤمنين: « قد صحّت التّجربة و قامت العبرة على أنّ سقوط الأسنان أصلح في الإبانة عن الحروف، منه إذا سقط أكثرها، و خالف أحد شطريها الشطر الآخر»[4]

و كذلك الأمر في قوله عن الأحنف بن قيس أنّه عنى بقوله "عِظامي" أسنانه التّي في فمه، و هي التّي إذا تمّت، تمّت الحروف، و إذا نقصت، نقصت الحروف. و قد أسهب الجاحظ في شرح هذه الظاهرة، و ذكر حال خطباء و أُناس سقطت جميع أسنانهم، إلا أنّهم

---

[1]- المصدر نفسه، ج1، ص143.
*الثّنايا: إحدى الأسنان الأربع الموجودة في مقدَّم الفم.
* دلع اللّسان: خرج من الفم و استرخى (أخرجه).
[2]- البيان و التّبيين، ج1، ص58.
*القادح أُكال يقع في الأسنان.
[3]- البيان و التّبيين، ج1، ص58-59.
[4]- المصدر نفسه، ج1، ص61.

كانوا ذووا ألسنة بيِّنةٍ لا يشوبها مشكلة، و كان معنى كلامهم مفهوما و بيِّناً، و رسالتهم بليغة فصيحة.[1]

أما من جانب آخر، فيقول أنّ حال الناطق ببعض الأسنان لسقوط بعضها كحال الحمام الذي قُصَّ أحد جناحيه فيكون النّطق عندها مشوبا، ولا يتمُّ نطق بعض الأصوات على طبيعتها، و قد يحدث ذلك خللا في إيصال الرسالة و التّبليغ. و في هذا يقول: « و قد ضرب الذين زعموا أنّ ذهاب جميع الأسنان أصلح في الإبانة عن الحروف من ذهاب الشّطرين أو الثّلثين، في ذلك مثلا قالوا: الحمام المقصوص جناحاه جميعا أجدر أن يطير من الذي يكون جناحاه أحدهما وافرا، و الآخر مقصوصا. قالوا علّة ذلك التّعديل و الاستواء، و إذا لم يكن ذلك كذلك ارتفع أحد شِقَّيه و انخفض الآخر، فلم يجذف و لم يطر.»[2]

و من هنا راح الجاحظ يعرض آفات تصيب الجهاز الصّوتي، مسجّلا بذلك سبقا على علم النّفس اللّغوي*، الذي تصدى إلى إحصاء هذه الآفات[3]، و من هذه الآفات ما يتعلّق بالأسنان نحو الفقم في قوله: « و من كان أفقم »[4] و الرّوق في قوله: « من كان أروقا »[5]، و الشّغيّ* و الأفلح* في قوله: « و كان زيد بن جندب أشْغى أفلحَ...»[6]، و قد ذكر الجاحظ هذه هذه الآفات دون ذكر المقصود بها، بل أشار فقط إلى إصابة أشخاص بها دون الحديث عن أثرها في سلامة النّطق أو مدى تسبّبها بعيب فيه، إنّما اكتفى فقط بذكرها.

5- أنواع عيوب الخطاب الصّوتي:

نظرا لأهميّة الأسنان و أثرها في سلامة النّطق، عُنِيَ الجاحظ بذكر العيوب التّي تُخلُّ بالكلام، و التّي تحول دون إبلاغ الرّسالة اللّغويّة المبثوثة على أحسن وجه. فتحدّث عن العيوب و الشوائب التّي يجب تجنّبها كي يتحقّق الحديث اللّغوي البليغ و الفصيح بغرض إفهام الحاجة.[7]

و قد ارتأى إدريس بلّمليح إلى تقسيم عيوب الخطاب الصّوتي الذي ذكرها الجاحظ في كتابه إلى قسمين هما:

أ- عيوب الصّوت المقطّع.
ب-عيوب التّأليف.

---

[1]- راجع البيان و التّبيين، ج1، ص61-62.
[2]- البيان و التّبيين، ج1، ص64.
*علم النّفس اللّغوي: فرع من فروع علم النّفس الذي يُسلّط الضوء على جانب معيّن من الظاهرة السلوكية في مجالات الحياة، يتميّز علم النفس اللّغوي بأنّه يتناول اللغة من منظور علم النّفس؛ أي أنّه يعنى باللّغة كظاهرة نفسيّة عند المتكلّم و السامع على السّواء.
[3]- عيسى عودة برهومة: تمثّلات اللغة و المجتمع في البيان و التّبيين، ص12.
[4]- البيان و التّبيين، ج1، ص55.
[5]- المصدر نفسه، ج1، ص55و 10.
*الشّغيّ: هو من اختلفت نِبْتَةُ أسنانه بالطول و القصر، و الدخول و الخروج.
* الأفلح: من له شِق في شفته العليا.
[6]- البيان و التّبيين، ج1، ص55.
[7]- إدريس بلّمليح: الرؤية البيانيّة عند الجاحظ، ص145.

أما القسم الأوّل، فخصّه بما يعود إلى عيوب اللّسان باعتباره عضوا أساسيا في الجهاز الصّوتي، فلا يُمكن أن يحدث الحدث اللّغوي دون ما يقوم به هذا العضو من دور في التّقطيع، أي في جعل الأصوات تتمايز كي تحدث تنوّعا في عمليّة الكلام[1]، و من خلال هذه العيوب الصّوتيّة و غيرها توصّل الجاحظ إلى دراسة التّقطيع الوظيفي للأصوات الأمر الذي سنراه من خلال ذكره لعيوب الكلام التّي نوردها كالتّالي:

1) اللثغة:

ظاهرة حظيت باهتمام الجاحظ كما لم يشغله أي عيب آخر من عيوب الكلام، حيث أسهب في شرحها، و إيراد النوادر عن أصحابها و تعداد حالاتها ، و لم يقف عند هذا الحدّ، بل خصّص لها باباً سماه **" ذكر الحروف التّي يدخلها اللّثغة "**، و هي جديرة بأن تكون مادة لدروس الصّوتيات، لأنّ إدراك الجاحظ فيها لمفهوم الوظيفة الحرفيّة (phonologie) لا مجال فيه للشّك.[2]

و اللّثغة هي نقص في آلة الصّوت، أو هي عجز في أداء الصّوت. قال الجاحظ: « و الذي يعتري اللّسان مما يمنع البيان أمور منها اللّثغة.»[3]

و تظهر هذه الآفة في خمسة حروف عربيّة، ذكر الجاحظ أربعة أحرفٍ منها هي **القاف و السين و اللاّم و الرّاء**[4]، أما الحرف الخامس و هو **الشين المُعجمة** فقد اعتذر عن ذكرها لأنّ الكتابة لا تستطيع تصوير هذا النّوع من اللّثغة لأنّه مخرج من المخارج و ليس حرفا من الحروف. فقال: « فأما التّي هي على الشّين المعجمة فذلك شيء لا يُصوِّرها الخطّ؛ لأنّه ليس من الحروف المعروفة ، و إنّما هو مخرج من المخارج....و ليس ذلك في شيء أكثر منه في لغة الخوز و في سواحل البحر من أسياف فارس كثير، كلامهم يشبه الصّفير ممن يستطيع أن يصوّر حروف الزّمزمة، و الحروف التّي تظهر في فم المجوسي إذا ترك الإفصاح عن معانيه و أخذ في باب الكتابة و هو على الطعام.»[5]

ثمّ مضى يذكر الأصوات التّي تدخلها اللّثغة على النّحو التّالي:

اللّثغة بالسّين؛ تُلفظ فيها السين ثاءاً « كقولهم لأبي يكسوم: أبي يكثوم؛ و كما يقولون: بثرة،و بِثم الله إذا أرادوا بُسرة و بِسم الله.»[6]

اللّثغة التّي تقع في القاف؛ فإنّ صاحبها يستبدل القاف طاءً، « فإذا أراد أن يقول: قلت لك، قال: طُلت لك.»[7]

لثغة اللاّم: يجعلها الجاحظ على ضربين:

---

[1]- إدريس بلّمليح: الرُّؤية البيانيّة عند الجاحظ، ص145.
[2]- محمّد الصّغير بنّاني: النّظريات اللّسانيّة و البلاغيّة و الأدبيّة عند الجاحظ، ص8و 112.
[3]- البيان و التّبيين، ج1، ص34.
[4]- إدريس بلّمليح: الرُّؤية البيانيّة عند الجاحظ، ص146.
[5]- البيان و التّبيين، ج1، ص34.
[6]- المصدر نفسه، ج1، ص 34.
[7]- البيان و التّبيين، ج1، ص34.

الأوّل أنّ بعض النّاس يجعل اللاّم ياءً. فيقول بدل اعتللت: اعتيَيْت، و بدل جمل: جمي. و الثاني: أنّ البعض الآخر من النّاس يجعل اللاّم كافاً. فيقول: مَكْعِكَةٌ في هذا؟ إذا أراد القول: ما العلّة في هذا؟.[1]

أمّا اللّثغة التّي تقع في الراء، فقد أورد الجاحظ أنّ عددها يُضاعِف عدد لثغة اللاّم، لأنّها تكون على أربعة أحرف يستطيع الخطّ تصويرها. و هي كالتّالي في قول الجاحظ:

فمنهم من إذا أراد أن يقول (عمرو) قال (عميُ) فيجعل الراء ياءً.

و منهم من إذا أراد أن يقول (عمرو) قال (عمغُ) فيجعل الراء غينًا.

و منهم من إذا أراد أن يقول (عمرو) قال (عمذُ) فيجعل الراء ذالاً.

و منهم من يجعل الراء ظاءً معجمة، فإذا أراد أن يقول:

و استبدّت مرّة واحدة إنّما العاجز من لا يُستبدُّ

يقول: و استبدّت مظّة واحدة إنّما العاجز من لا يُستبدُّ [2]

و يذكر الجاحظ أنّ لثغة الغين أيسر شكلا من أشكال اللّثغة، إذ أنّها أقلّ قبحا و أكثر شيوعا في وسط العلماء و الخطباء. حيث يقول: « و أما اللّثغة في الرّاء فتكون بالظاء و الذال و الغين و هي أقلّها قُبحا و أوجدها من ذوي الشّرف و كبار النّاس و بلغائهم و أشرافهم و علمائهم.»[3]

2) اللّكنة:

عرّفها الجاحظ بأنّها إدخال بعض حروف العجم في حروف العرب[4]، و قد أورد الجاحظ أبرز انحرافات اللّكنة كما أثّرت في كلام الرّجال المشهورين و لسان العامة، و من ذلك في كلام الرّجال المشهورين من خطباء:

- تحوّل السّين شيناً، و الطّاء تاءً، في بيت زياد الأعجم الذي أنشده قائلا:

فتى زاده السّلطان في الوِدِّ رفعة إذا غير السلطان كل خليل

فيقول: فتى زاده الشلتان.[5]

- تحوّل الشين سيناً، كما يروي عن سُحيم عبد بني الحسحاس، الذي أنشد أمام عمر بن الخطاب قوله:

عُميرة وَدِّع إن تجهّزت غادياً كفى الشيب و الإسلام للمرء ناهيا

[1]- المصدر نفسه، ج1، ص35.
[2]- المصدر نفسه، ج1، ص35.
[3]- المصدر نفسه، ج1، ص15.
[4]- المصدر نفسه، ج1، ص40.
[5]- البيان و التّبيين، ج1، ص71.

فقال له عمر: لو قدّمت الإسلام على الشّيب لأجزتك، فقال له: "ما سعرت" و هو يريد قول: ما شعرتُ.[1]

- تحوّل الخاء هاءً، و ذلك في قول صُهيب بن سنان النّمري: « إنّك لهائن، يريد إنّك لخائن، و هو يرتضح لكنة روميّة.»[2]
- تحوّل الحاء هاءً في قولهم: الهاصل بدل الحاصل، و أهسن بدلا من أحسن.[3]
- تحوّل القاف كافاً في قول مسلم الخراساني " كُلت لك بدلا من قُلتُ لك"[4]

و يذكر عددا من لكنة العامّة سواءٌ كانوا من العجم أم من العرب الذين عاشوا مع العجم نذكر منها على سبيل الحصر، استبدال العين همزة، و الدال المعجمة دالاً، و الياء ألفا، و الجيم ذالاً..[5]

3) التمتمة و الفأفأة:

التّمتمة هي تردّد و تلعثم اللّسان في النّطق بحرف التاء، و كذلك الأمر بالنّسبة للفأفأة، فهو اضطراب لفظ الفاء و إخراجه على غير حقيقته و يُفهم هذا المعنى في قول الأصمعي: « إذا تتعْتع اللّسان في التاء فهو تمتام، و إذا تتعتع في الفاء فهو فأفاء.»[6]

أما عيوب التأليف فهي كالآتي:

1. اللّجلجة:

المقصود بها التّردد في إقامة الكلام بصفة عامّة و ليس في حرف بعينه لآفة عارضة في اللّسان.[7]

2. الحبسة:

هي أن يثقل الكلام على الشّخص فلا ينطق به بطلاقة و إنّما بعد قليل من التعمّل و الكلفة.[8] « و يُقال: في لسانه حبسة، إذا كان الكلام يثقل عليه»[9]

3. العقلة:

هي شبيهة بالحبسة، و لكنّها أكثر درجة منها، إذ أنّ صاحبها وجد بينه و بين النّطق بلسان طليق حاجزا يحول بينه و بين أجزاء عمليّة الكلام على وجه يفي بتطابق دلالته

---

[1]- المصدر نفسه، ج1، ص71-72.
[2]- المصدر نفسه، ج1، ص72.
[3]- المصدر نفسه، ج1، ص72.
[4]- المصدر نفسه، ج1، ص73.
[5]- راجع المصدر نفسه، ج1، ص73-74.
[6]- المصدر نفسه، ج1، ص37.
[7]- البيان و التّبيين، ج1، ص39.
[8]- إدريس بلّمليح: الرّؤية البيانيّة عند الجاحظ، ص148.
[9]- البيان و التّبيين، ج1، ص39.

لتصوّراته الذّهنيّة و كأنّ لسانه معقول على ذلك.[1] يقول الجاحظ: « و يُقال في لسانه عُقلة؛ إذا تعقّل عليه الكلام.»[2]

4. اللّفف:

هو إدخال بعض الكلام في بعض، مما يجعل الخطاب اللّغوي غير مفهوم. « قال أبو عُبيدة: إذ أدخل الرّجل بعض كلامه في بعض فهو ألفُّ، و قبل بلسانه لفف»[3]

5. الحلكة:

هي من عيوب النّطق الذي تختلط فيه اللّفظ حتى يعسر فهمه، و يستبهم معانيه، يقول الجاحظ: « فإذا قالوا في لسانه حلكة فإنّما يذهبون إلى نقصان آلة المنطق، و عجز أداة اللّفظ، حتى لا تعرف معانيه إلا بالاستدلال.»[4]. و يرى في موضع آخر من البيان و التّبيين أنّها ناتجة عن اجتماع عيبين في اللّسان، يقول: « يقال في لسانه حلكة، إذا كان شديد الحبسة مع الألثغ.»[5]

6. العجلة: و من شأن العجلة في الكلام أن تجعله غير مفهوم.[6]

7. ضالة الصّوت:

و قد كانوا يعيبون صاحبها، و يمدحون جهارة الصّوت. قال الأعشى:

فيهم الخصب و السّماحة و النّجد دة جمعا و الخاطب الصّلاّق[7]*

فقد كانوا يذمّون صاحب الصّوت الضعيف، كنحو ما قال بشّار:

و من عجب الأيام أن قمت ناطقا و أنت ضئيل الصّوت منتفخ السّحر[8]

أي جبان.

و في مقابل هذا فقد كانوا يتفاخرون بارتفاع الصّوت و شِدَّته في الخطابة.[9]

8- التّشادق:

و هي طريقة مستقبحة في النّطق تقوم على التّكلّف و المعاناة في استغلال دور الفكّين و الشّدقين في تقطيع الحروف وتأليف الكلمات. و يقف الجاحظ عليه و يبيّن قبحه

[1]- إدريس بلّمليح: الرّؤية البيانيّة عند الجاحظ، ص148-149.
[2]- البيان و التّبيين، ج1، ص39.
[3]- المصدر نفسه، ج1، ص38.
[4]- المصدر نفسه، ج1، ص40.
[5]- المصدر نفسه، ج1، ص325.
[6]- المصدر نفسه، ج1، ص39.
*الصّلاق: الصّوت المرتفع.
[7]- البيان و التّبيين، ج1، ص124.
[8]- البيان و التّبيين، ج1، ص124.
[9]- المصدر نفسه، ج1، ص125.

بقوله: « و الأعرابي المُتشدّق هو الذي يصنع بفكّيه و شِدقيه ما لا يستجيزه أهل الأدب من خطباء أهل المدر، فمن تكلّف ذلك فهو متكلّم أعيب، و الذّم له ألزم.»[1]

9- التّقعير:

التّقعير في الكلام هو أن يتكلّم الإنسان بأقصى قعر فمه مما يدلّ على مبالغة المتكلّم في الحديث فتكلّم بأقصى قدرة له في جهازه الصّوتي.

هذه بعض العيوب التي تضمّنها البيان و التّبيين في أقوال مفصّلة و إشارات مجملة، سواء كان سببها عِلّة في اللّسان أو في الأسنان أو انحرافات بتأثير لغات أو لهجات عربيّة، والّتي تشكّل في مجملها مُعَوِّقات تحول دون تبليغ الخِطاب اللّغوي على وجهه الصّحيح.

6- الانسجام و التّنافر في الأصوات اللّغويّة:

أولى الجاحظ الجانب الصّوتي في الأعمال الفنّية عناية غير يسيرة، فقد تناول الأصوات و الألفاظ على مستوى الانسجام و التّنافر و مدى ما تُحقّقه من ذلك، فالعنصر الصّوتي يُحقّق البلاغة و الفصاحة على مستوى الإبلاغ المفهوم، و على مستوى الإبلاغ الفنّي من حيث أنّ للأصوات اللّغويّة تأثيرا على المتلقي[2]، يقول الجاحظ: « إنّ البيان يحتاج يحتاج إلى تمييز و سياسة، وإلى ترتيب و رياضة، و إلى تمام الآلة و إحكام الصّنعة، و إلى سهولة المخرج و جهارة المنطق، وتكميل الحروف و إقامة الوزن، و أنّ حاجة المنطق إلى الحلاوة و الطّلاوة كحاجته إلى الجزالة و الفخامة، و أنّ ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب، وتثني به الأعناق، و تزيّن به المعاني.»[3]

و ذلك أنّ الانسجام يتحقّق بانتظام الأصوات و الألفاظ و ائتلافها، و يؤدي عدم الائتلاف و الانسجام إلى التّنافر. إذ يقول: « إذا كان الشّعر مستكرها و كانت ألفاظ البيت من الشّعر لا يقع بعضها مائلا لبعض، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العِلات، و إذا كانت الكلمة ليست موقعها إلى جنب أختها مُرضيا موافقا، كان على اللّسان عند إنشاء ذلك مؤونة.»[4]

فالعمل الفنّي يستوجب توفّر التّجانس و الائتلاف بين أصواته، إذ أنّ حروف الشّعر نغم و إيقاع، تتّصِف في جيّد الشّعر بالاتفاق و سلاسة النّظام. و في هذا يقول الجاحظ: « و كذلك حروف الكلام و أجزاء البيت من الشّعر تراها مُتّفقة مُلسا، و ليّنة المعاطف سهلة... سلسة النّظام خفيفة على اللّسان، حتّى كأنّ البيت بأسره كلمة واحدة.»[5]؛ و معناه أنّ الشّعر الجيّد هو ما اتّصف بالانسجام الصّوتي بين مقاطعه و أجزائه.

---

[1]- المصدر نفسه، ج1، ص281.
[2]- إدريس بلّمليح: النّظريات اللّسانيّة و البلاغيّة و الأدبية عند الجاحظ، ص157-158.
[3]- البيان و التّبيين، ج1، ص14.
[4]- المصدر نفسه، ج1، ص66-67.
[5]- المصدر نفسه، ج1، ص67.

و في رديء الشعر بالتّنافر و الاستكراه. يقول الجاحظ: «... و تراها مختلفة متباينة، مستكرهة، تشُقُّ على اللّسان و تكُدُّه...»[1]

و ربّما قصد من هذا القول، الذي هو جزء من القول الذي سبق ذكره المتضمّن حديثه عن الموسيقى الدّاخليّة للبيت الشّعري أبعد من هذا؛ أي ما يُحقّقه النّبر و الإيقاع في مخارج الحروف. فيقول: « و من ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر، و إن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلاّ ببعض الاستكراه، فمن قول الشاعر:

و قبر حرب بمكان قفر و ليس قرب قبر حرب قبر »[2]

ففي هذا البيت قرب مخارج الحروف من بعضها أدى إلى عدم التناسق و الانسجام بينها، لهذا يُؤكّد الجاحظ على أنّ أجود الشّعر ما تلاحمت أجزاؤه و سهلة مخارجه.

و كما تتنافر الألفاظ، تتنافر الأصوات، فيقول: « فهذا اقتران الألفاظ، فأما اقتران الحروف فإنّ الجيم لا تقارن الظاء و لا القاف و لا الطاء و لا الغين بتقديم و لا بتأخير، و الزاي لا تقارن الضاد و لا السين و لا الظاء و لا الدال بتقديم و لا بتأخير، و هذا باب كبير، و قد يكتفي بذكر القليل حتى يستدلّ به على الغاية التّي إليها يجري.»[3]؛ فهنا إشارة إلى أهمّية قوانين الانسجام الصّوتي في اللّغة.

7- تأثير اللّغة الأمّ في اللّغة الثانية:

من الملاحظات اللّغويّة الجديرة بالاهتمام، ملاحظة الجاحظ تأثير اللّغة الأمّ* الأصليّة في اللّغة الثانية* التي يكتسبها الإنسان بالانتقال و الاختلاط، فنجده يقول في هذا الصّدد أنّ اللّغتان إذا التقتا في اللّسان الواحد أُدخلت واحدة منها الضّيم على صاحبتها[4]. و هو يصرّح بتأثير اللّغة الأمّ في اللّغة الجديدة الدّخيلة، و كذلك الحال فإنّ اللّغتين تصبحان محط تأثّر و تأثير.

و من أيضا قوله: « و قد يتكلّم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربيّة المعروفة، و يكون لفظه متخيّرا فاخراً، و معناه شريفا كريماً، و تعلم مع ذلك السّامع لكلامه و مخارج حروفه أنّه نبطيٌّ، و إذا تكلّم الخراساني على هذه الصّفة، فإنّك تعلم مع إعرابه و تخيّر ألفاظه في مخرج كلامه أنّه خراسانيٌّ، و كذلك إن كان من كتاب الأهواز...»[5]؛ فمهما فمهما حاول التّصنّع و التّجديد و التّكلّف في محاولة طمس القديم، إلاّ أنّ أثر اللّغة الأم يبقى واضحا و ظاهرا في كلامه، و ذلك حال التّحضّر في مجتمعاتنا اليوم، حيث إذا تحضّر أحد

---

[1]- المصدر نفسه، ج1، ص67.
[2]- البيان و التّبيين، ج1، ص65.
[3]- المصدر نفسه، ج1، ص69.
* اللّغة الأمّ: هي اللّغة التي يتكلّمها الإنسان منذ ولادته، يتحدّثها الشخص بطاقة و إتقان، يكتسبها من عائلته و محيطه.
* اللّغة الثانية: هي اكتساب الشّخص لغة ثانية بالاضافة إلى لغته الأم، و ذلك عن طريق الاختلاط و التّنقل، يتكلّمها الإنسان بدرجة أقلّ إتقانا من لغته الأمّ.
[4]- ينظر: عيسى عودة برهومة، تمثّلات اللّغة و المجتمع في البيان و التّبيين، ص19.
[5]- البيان و التّبيين، ج1، ص69.

البدو أو جاء أحد الأشخاص من إحدى المناطق النّائية المدينة، يحاول التّأقلم مع نمط المعيشة و كذا مع طريقة الكلام، فنجده يحاول الانتقال في لهجته لتقليد لهجة المدينة، إلا أنّ آثار لهجته الأمّ تبقى ظاهرة في لغته. و الانتقال من اللّغة الأمّ و عاداتها اللّغويّة الصّوتيّة إلى اللّغة الثّانية هي مسألة من مسائل النّبر التي أشار إليها الكثير من العلماء[1].

8- بين الصّوت و اللّفظ:

يشكّل الصّوت و التّصويت قاعدة هامة للخوض في المجال التواصلي، فإذا انطلقنا من أنّ الصّوتي (vocal) ليس التّصويتي (phonétique) كما يُؤكّد ذلك مارتيني في قوله: « و لدينا مقابلة "تعبير تصويتي" لماذا تصويتي بدل صوتي؟ الأخير أكثر اتساعا؛ إنّه يعني صوتا إجمالا، و صورة عامة صوتا يعود إلى اللّغة الإنسانية، و لكنّ الأمر ليس دائما بيّنا، بينما "تصويتيّ" أكثر دقة، إنّه يرجع إلى التّشويش »[2]، فالتّصويتي في هذا المستوى حسب مارتيني أفضل من الصّوتي؛ أي vocal أفضل من phonétique و هي مراجعة لكل ما عنى به الجانب الصّوتي لمفهوم اللّسان في عناصر اللّسانيات العامة[3]، و هذا التّمييز مهمّ كونه يحدّد إدراك المعنى عند الإنسان البالغ النّاطق، و انعدامه عند الحيوان الذي ينتج أصواتا في جانب صوتي، لأنّ المدلول عند الحيوان لن يكون مدركا بالمعنى الذي يدرك من خلاله في اللّغة الإنسانيّة، ناهيك عن عدم الإدراك عند المجنون و الإدراك المندرج عند الطّفل الصّغير[4].

و نجد الجاحظ قد حقّق السّبق في هذا الأمر، فهو يرى أنّ اللّفظ للسّامع[5]، فاللّفظ حسب الجاحظ قد جعل لشيء، في حين جُعل الصّوت لشيء آخر، فاللّفظ ليس الصّوت أو التّصويت، فمن الملاحظ أنّ الصّورة اللّفظيّة لا تتوافق تماما مع الصّوت، ناهيك عن كونها ذات طبيعة نفسيّة[6]، شأنها في ذلك شأن المتصوّر المقترن بها.

فالجاحظ على علم بأنّ اللّفظ ليس الصّوت، و أنّ الكتاب ليس الصّوت و لا اللّفظ، كما أنّ الصّوت قد يكون تلفّظا متواصلا دون معنى[7]، فهو يرى أنّ اللّفظ يُوضّحه القرب، و يتّضح ذلك في قوله: « فجعل اللّفظ لأقرب الحاجات و الصّوت لأنفس من ذلك قليلا.»[8]

---

[1]- إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، ص155.
[2]- أندري مارتيني: وظيفة الألسن و ديناميّتها، ص39.
[3]- المرجع نفسه، ص35.
[4]- عايدة حوشي: نظام التّواصل السّيميولساني -حسب نظريّة بورس-، أطروحة مقدّمة بكلّية الآداب و العلوم الاجتماعية، قسم اللّغة العربيّة و آدابها- جامعة فرحات عباس سطيف- ص463.
[5]- كتاب الحيوان، ج1، ص48.
[6]- عايدة حوشي: نظام التّواصل السّيميولساني -حسب نظريّة بورس-، ص464.
[7]- المرجع نفسه، ص464.
[8]- كتاب الحيوان، ج1، ص48.

المبحث الثاني: الفونولوجيا عند أندري مارتيني.

1- فونولوجيا براغ:

تولّد الاتّجاه الوظيفي عن الأعمال التي اهتمت بدراسة الظّواهر الصّوتية في إطار ما يُسمى بالاتجاه الفونولوجي، الذي ظهر على يد:تروبتسكوي و طُور على يد جاكبسون و مارتيني و حلقة براغ المتأسّسة في عام: 1928 [1].

عنيت مدرسة براغ بدراسة النظام الكُلي للغّة بمستوياته المختلفة:النحوية،الصرفية،الصوتية و الدلالية، دراسة وظيفية محظة، و قد شملت نشاطات هذه المدرسة المجالات التالية: التحليل الوظيفي و العروضي، و تصنيف التضاد الفونولوجي... [2].

و تعتبر فونولوجيا براغ الميدان الذي تجلت فيه أكثر نظرية ديسوسير البنوية، و الحقيقة أن الميلاد الرسمي للفونولوجيا يتمثل في الاقتراح المشهور الذي قدمه كل من: جاكبسون، تروبستكوي و كرسيفسكي في المؤتمر العالمي الأول للسانيين بلاهاي، في أفريل من سنة 1928، إجابة على سؤال قدمته اللّجنة المنظمة للمؤتمر، و السؤال هو: ما هي المناهج الأكثر ملاءمة في عرض كامل و عملي لنحو [في النص القانوني للسؤال، ضمن طبعة الأعمال المختارة لجاكبسون، تَم وضع كلمة فونولوجيا بدل كلمة نحو] لُغة ما ؟ [3].

و قد أطلق مؤسسو المدرسة على منهجهم الخاص بالدراسة الصوتية اسم: الصوتيات الوظيفية، الذي يتولى دراسة المعنى الوظيفي للنمط الصوتي، ضمن نظام اللّغة الشامل و استخراج كل الفونيمات و ضبط خصائصها، و تحديد توزيع ألوفوناتها[4].

2- أهم المبادئ الفونولوجية لحلقة براغ:

1. في جميع اللّغات ترتب الأصوات ببعضها البعض في صورة وحدات صوتية تنتمي إلى كل منظم (إلى نظام)، وهذا ما يسمح بتصنيف هذه الوحدات و دراستها وظيفيا.
2. الكشف عن العلاقات التي تنطوي على وظيفة في النظام الفونولوجي للّغة الواحدة، مثل: علاقات التقابل بين مجموعة الأصوات الشفوية (م، ب،و، ف)، أو بين الحروف الصفيرية (س، ص، ز) في اللّسان العربي، (فالمحلل الصوتي يعمل على التعرف على فونيمات اللّغة بمقارنة بعضها ببعض مراعيا في ذلك طرق التحصيل، ومراعيا خاصة وظيفة كل واحد منها في الإفادة، وهذا المقياس (الوظيفة) هو الأهم والحاسم في ضبط جدول الأصوات التي يتضمنها الكل).

---

[1] -Ducrot ,Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage,p 49.

[2]-أحمد مومن،اللسانيات النشأة و التطور، ص:136 .

[3]- الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية دراسة تحليلية ابستيمولوجية،ص:104 .

[4]- أحمد مومن ، اللّسانيات النشأة و التطور، ص:137.

3. مبدأ التمييز بين التّنوعات الصوتية التي هي مجرد تحقيقات نطقية لفونيم واحد و التغيرات التي تُصيب الفونيمات، حيث تقتضي تغيير الوظيفة الدلالية للكلمة وذلك عند تبديل فونيم مكان فونيم آخر في السياق ذاته[1].

3- نظرية مارتيني الفونولوجية:

ساهم مارتيني مساهمة فعالة في إزالة الفصل الذي قامت به مدرسة براغ بين الصوتيات الوظيفية (Phonologie) عن الصوتيات(Phonétique) ، حيث نسبت الأولى إلى العلوم والثانية إلى الدراسات الإنسانية. وقد عدّ مارتيني الفونولوجيا نوعا من الفونيتيك الوظيفية(Fonctionnel phonétique) ، ولم يمنعه تأثّره بهذه المدرسة أن يكون من المنظّرين السباقين في ميدان الصوتيات الزّمانية، و يهدف من وراء نظريته هذه إلى تفسير تطور اللّغة، باستعمال مصطلحات بسيطة لا غموض فيها مثل: اللّغة، الجملة، السمة المميزة، اللّفظم: أي الوحدة الصرفية التي تُقابل المورفيم في بعض النظريات الحديثة الأخرى[2].

أما غرضه من التحليل الفونولوجي، فيكمن فتشخيص العناصر الصوتية حسب وظيفتها في اللّغة، ونظرا لاهتمامات مارتين بالدراسات الزمانية، ونظرية التغير الصوتي، فقد حول النظرية العلاجية للتغير الصوتي إلى نظرية لسانية متطورة، وعزا التغيرات إلى عوامل داخلية لا تخرج عن إطار اللّغة، لأنه يعتقد أن اللّغات عبارة عن أنظمة سيميائيّة تنظم نفسها بنفسها، وتتحكم فيها المبادئ التي تُلبي متطلبات الجهد الأدنى والوضوح أثناء عملية التواصل.

و بشكل عام فإن الفونولوجيا التاريخية لا تهتم بالتغير الصوتي، إلّا لما يحدثه من تعديلات في بنية اللّغة ، لأن في هذه الحالة فقط يمكن أن نقول بأن تغيرا ما كان تغيرا وظيفيا، فهذه الأنواع الوظيفية الهادفة للتغير الصوتي بالمقارنة مع تلك التغيرات التي لا تفضي إلى تعديلات منتظمة تُدعى تحويلات فونولوجية.

ذاع صيت المدرسة الوظيفية(نظرية أندري مارتيني و مدرسة براغ) خاصة في ميدان الفونولوجيا، ولم تقتصر هذه الأخيرة على الوصف العلمي، بل تعدّته إلى التحليل الوظيفي والتفسير الواقعي، وأثبتت أن المناهج الفونولوجية صالحة للدراسات الآنية والزمانية على حد سواء.

[1]- الطيب دبه، مبادئ في اللّسانيات البنوية،دراسة تحليلية ابستيمولوجية.
[2]- أحمد مومن، اللّسانيات النشأة و التطور.

4- الصوتيات: Phonétique

جاء في القاموس اللّسانيات أن: " الصوتيات هي العلم المهتم بالجانب المادي للأصوات في اللّسان البشري"[1]، وتسعى الدراسة العلمية الموضوعية في هذا العلم إلى وصف الصوت اللّغوي بالاعتماد على بعض الميادين في علم الفيزياء والفيزيولوجيا، والصوتيات هو ذلك العلم التجريبي الموضوعي للأصوات اللّغوية، ومن هنا فهو أخص من علم الأصوات الباحث في الصوت كيفما كان مصدره (لغويا كان أو غير لغوي)[2].

4-1- مفهوم الصوت:

ينبني كل تواصل على الأصوات، وبانعدام الصوت تصبح اللّغة عبارة عن إشارات و رموز، والصوت ينبعث من الحنجرة بفضل وجود وترين صوتيين بمجرد تذبذبهما يحدثان صوتا، والصوت الإنساني يتغير بدرجة كبيرة تؤثر في عملية التواصل فالنغمات وعلو الصوت يختلفان من شخص لآخر[3].

وهو ظاهرة فيزيائية عامة الوجود في الطبيعة، طاقة يحس بها نتيجة الاهتزازات التي تنتقل عبر الهواء إلى أذن السامع ثم إلى جهازه الإدراكي في المخ، والصوت هو: "الركيزة والمقوم المادي للسان وهو حد التحليل اللّغوي ونهايته، وأصغر قطعة في النظام اللّغوي"[4].

"...إن كل جسمين تصادما برفق ولين، لا تسمع لهما صوتا، لأن الهواء ينسل من بينهما قليلا، فلا يحدث صوتا، وإنما يحدث الصوت من تصادم الجسام متى كان صدمها بشدة وسرعة، لأن الهواء عند ذلك يندفه مفاجأة، ويتموج بحركته بسرعة فيحدث الصوت و يُسمع"[5].

الصوت إذن لا يحدث ولا يسمع ولا ينتقل إلى الأذن إلّا إذا حدث الصدم، وهو هواء يتقلب بين جسمين مهتزين، متصادمين بقوة، وينتقل إلى الأذن ليتم إدراكه.

4-2- الصوت اللّغوي Phone :

هو الموضوع الأساسي للصوتيات وهو:" كل إنجاز ملموس لفونيم ما متغير حسب السياق الصوتي، وحسب المتكلم والشروط العامة للإرسال"[6]. وهو لذلك يمثل:" أصغر وحدة صوتية لغوية قابلة في ذاتها للقياس بالآلات الحساسة"[7].

---

[1] - Jean Dubois et autre, Dictionnaire de linguistique, p :373.

[2]- الطيب دبه، مبادئ في اللسانيات البنوية، دراسة تحليلية ابستيمولوجية، ص: 163.

[3]- شحدة الفارع و آخرون، مقدمة في اللّغويات المعاصرة، دار وائل للنشر و التوزيع، الأردن، ط5، 2002، ص:244.

[4]- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، ط2، دار القصبة للنشر، حيدرة، الجزائر، 2000، ص:43.

[5]- ينظر: نصر الدين بن زروق، المحاضرة الثالثة في مادة: لسانيات عامة، المدرسة العليا لتكوين الأساتذة في الآداب و العلوم الإنسانية، بوزريعة، 205 2006، ص: 109.

[6] - Jean Dubois et autre, Dictionnaire de linguistique, p :371.

[7]- أحمد حساني، مباحث في اللّسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، 1994، ص: 70.

3-4- فروع الصوتيات:

بما أن الصوتيات تبحث في الصوت اللّغوي من حيث هو مادة، فقد كان طبيعيا أن يرتبط بالعديد من العلوم مثل: علم الأصوات، الفيزياء والفيزيولوجيا، ومن أهم الفروع التي تفرعت عن الدراسة الصوتية تحت تأثير هذه العلوم نذكر:

1. الصوتيات العامة (Phonétique générale) : تدرس الإمكانات الصوتية للإنسان من خلال جميع الألسن البشرية.
2. الصوتيات الفيزيائية (Phonétique acoustique) : تدرس الظروف الفيزيائية لتوجيه الرسالة عن طريق ذبذبات الهواء إلى أذن السامع.
3. الصوتيات السمعية (Auditive phonétique) : تتعلق بدراسة ظروف استقبال الصوت اللّغوي على مستوى جهاز السمع.
4. الصوتيات الفيزيولوجيّة النطقية (Phonétique articulatoire) : ترتبط بوصف كيفيات إرسال الصوت اللّغوي من خلال جهاز النطق.
5. الصوتيات الوصفية أو التزامنيّة (Phonétique descriptive ou statique) : يتتبع هذا العلم أوصاف أصوات اللّغة وتصنيفها في ضوء منهج الدراسة التزامنيّة أي خلال مرحلة واحدة من مراحل تطورها.
6. الصوتيات التاريخيّة (Phonétique historique) : الدرس المتتبع للتطورات الحاصلة للصوت عبر تاريخ اللّغة.
7. الصوتيات المقارنة (Phonétique comparée) : يهتم هذا العلم بالأصوات التي تظهر في لغتين أو أكثر من أجل المقارنة فيم بينها.
8. الصوتيات التجريبية (Phonétique expérimentale) : تتجلى أهمية هذا العلم في أن الصوتيات النطقية و الفيزيائية تعتمدان عليه اعتمادا كبيرا، و وظيفة هذا العلم هي مثلما يشير إليه اسمه إجراء التجارب المختلفة على الصوت اللّغوي بواسطة الآلات.

4-4- الصوت عند أندري مارتيني:

يصحب الهواء بعض المخارج الفميّة التي هي من الأساس دوين القليل قرعها كي تسمع في ظروف عادية، و الصوائت هي التي تمثل الصوت، و قد تنوع تلوينه بحجم تجاويف الفم، و بتغير شكلها، و يكون بمشاركة تجاويف الأنف أو بعدم مشاركتها. و لكن الصوت يمكن أيضا أن يصحب قرعا جد مميز حتى يدرك دون مساعدته، و الجرس المتراوح بين الثقل و الحدة للصوت عليق أو لا بطول الأوتار الصوتية من جهة، و من جهة أخرى عليق بدرجة ضغط الأوتار الصوتية، و هذا الضغط أو الاعتماد يمكن للمتكلم أن يغيره وفق رغبته[1].

[1]- أندري مارتيني، مبادئ في اللسانيات العامة، ص:

5- مفهوم المونيم و الفونيم عند أندري مارتيني:

يبين أندري مارتيني أن اللسان يتركب من وحدات وعندما يقوم المحلل بتقطيع نص من النصوص اللّغوية يحصل على نوعين من الوحدات عند انتهاء العملية:

المونيم(Le monème): هو القطعة الدالة الصغرى التي لا يمكن تحليلها إلى وحدات أخرى صغرى منها من حيث الدلالة[1]. فالفونيم هو أصغر ما يمكن أن يصل إليه المعنى و هو الرمز الأدنى، والنقطة من الخطاب حيث يتطابق فيها المعنى، واختلاف شكلي كي يؤلفا معا وحدة معنى لا يمكن تحليلها إلى وحدات معنى أصغر، وذلك الاختلاف الشكلي يوافق غالبا مقطعا متميزا، لكنه يمكنه أن يظهر بشكل متقطع، كما في حالة المطابقة في مونيم الجمع الفرنسي leptizanimo في مقابل leptitanimal [2].

الفونيم(le phonème): هو أصغر الوحدات الصوتية المجردة من المعنى[3].فهو أصغر وحدة يمكنها أن تتحقق وظيفتها على مستوى الدال بأنها تعمل على تقابل وحدتين مختلفتين، فهو يميل للوحدة القاعدية للسان البشري، ونجده محدود ومحصور داخل كل لسان بشري.

6- كيف يحدث الصوت الإنساني؟

الجهاز النطقي عند الإنسان:عبارة عن التجويف الفمّي والأنفي والحلق والحنجرة،القصبة الهوائية والرئتين، ولهذه الأعضاء وظائف حيوية أخرى لا يمكن أن نجحفها ف:

الشفتين: تستخدمان لتلقي الطعام عند دخوله في الفم، كما تستخدمان صماما لمنع الطعام أن يخرج من الفم أثناء المضغ.

الأسنان والأضراس: تستخدم لقطع الطعام ومضغه.

اللسان: لتقليب الطعام في الفم وتذوقه.

التجويف الأنفي: هو بمثابة حجرة يتكيف فيها الهواء قبل نزوله إلى الرئتين.

الحلق: هو ممر للطعام وللهواء.

الحنجرة: فيها وتران صوتيان الذي يؤديان وظيفة الصمام للرئتين لحفظهما، ولحيس الهواء فيهما عند الحاجة.

القصبة الهوائية: الطريق الذي يمر به الهواء الداخل للرئتين أو الخارج منهما.

---

[1]- خولة طالب إبراهيم، مبادئ في اللسانيات

[2]- أندري مارتيني، وظيفة الألسن وديناميتها تر:نادر سراج، دار المنتخب العربي، بيروت، ط1، 1996، ص: 217.

[3]- شفيقة العلوي، محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، ط1، أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2004، ص: 19.

الرئتان: تستخدمان لتنقية الدم الموجود في الجسم، بإعطائه الأوكسجين، وتخليصه من ثاني أكسيد الكربون، ثم توزيع الدم الصالح على أعضاء الجسم بواسطة القلب.

" والنطق في الواقع ليس أكثر من وظيفة ثانوية، تؤديها هذه الأعضاء، إلى جانب قيامها بوظائفها الرئيسية التي خلقت من أجلها، ولهذا فإن عجز الإنسان عن الكلام، لإصابته بالبكم، لا يعني على الإطلاق عجز أعضائه هذه عن القيام بوظائفها الأخرى، التي تحفظ على صاحبها الحياة فلسان الأخرس يقوم بجمع الوظائف التي يقوم بها لسان غير الأخرس، فيما عدا الكلام بطبيعة الحال"[1].

ونرى أن الأعضاء التي سميت بأعضاء النطق، لا تنحصر وظيفتها في إحداث الأصوات فحسب بل لها وظائف حيوية أخرى، وقد استطاع الإنسان أن يكيف جهازه الصوتي في أوضاع مختلفة، مع إخراج الهواء من الرئتين، وأنتج بذلك أصوات عديدة مختلفة المخارج والصفات التي تظهر أثناء كلامه.

7- أجزاء جهاز النطق ودور كل منها في إحداث الصوت:

تحدث أصوات الكلام من أثر بعض الأعضاء التي تسمى "أعضاء الكلام"، التي يتألف منها الجهاز الصوتي للإنسان والتي تتمثل في:

1- القصبة الهوائية: عبارة عن أنبوب يمر عبره الهواء الصاعد من الرئتين في اتجاه الحنجرة، بحيث يكون الهواء مخزنا ثم مضغوطا بين نقطتين من قصبة التنفس[2]. ويخرج الهواء من الرئتين عند تقلص عضلات الصدر والبطن وضغط منطقة الحجاب الحاجز على الرئتين.

2- الحنجرة: تقع في أقصى الجهاز الصوتي، وتمثل المصدر الأساسي في حدوث الصوت عند الإنسان، إذ بواسطتها يتحول الهواء الصاعد من الرئتين عبر القصبة الهوائية إلى صوت مسموع، تتكون من انعطافين عضليين يسميان: بالوتران الصوتيان.وإذا تقاربا هذين الأخيرين يمكن أن يسدا تماما مرور الهواء وهذا ما يحدث قبل السعال، و عند التنفس ينفرج الوتران الصوتيان انفراجا مبينا و هكذا يمر الهواء طليقا عبر الحنجرة في الاتجاهين[3].

و يعتبر الوتران الصوتيان أهم عضو في جهاز النطق البشري،اللذان يلتقيان تحت لسان المزمار*، و هما على شكل شفة.

---

[1]- عبد الرحمن أيوب، أصوات اللغة، القاهرة، 1968، ص: 40

[2]- أندري مارتيني، مبادئ في اللسانيات العامة، ص: 39

[3]- المرجع نفسه، ص: 40.

* المزمار: هو الفراغ بين الوترين، و له غطاء يسمى لسان المزمار، و هو صمام الأمان يحمي التنفس عند عملية البلع.

3- الحلق: عبارة عن تجويف يقع بين الحنجرة و أقصى اللّسان، و يمكن تسميته ومؤخر الفم وتتمثل وظيفته في تضخيم الأصوات الناتجة عن الذبذبة التي يحدثها الوتران الصّوتيان.

و قد قسم علماء الأصوات إلى ثلاث مناطق هي:

أ- أقصى الحلق أو الجزء القريب من الحنجرة.
ب- وسط الحلق هو الجزء الواقع بين الحنجرة وأقصى الحلق.
ج- أقصى الحلق وهو الجانب العلوي من الحلق و يقع على مقربة من اللّهاة.

4- اللّسان: هو عضو لين قابل للحركة في كل الاتجاهات، له أهمية كبرى في عملية النطق بالأصوات اللّغوية و إليه تُنسب اللّغة(Langue)، و ينقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام:

أ- أسلة اللّسان أو الذولق، و هو الجزء المستدق من اللّسان.
ب- وسط اللّسان: الجزء الواقع بين الأسلة و منبت اللّسان و يتم بواسطته النطق بالحروف الشجرية.
ج- أقصى اللّسان: و هو الجزء القريب من اللّهاة و أقصى الحنك.

5- الحنك: هو تجويف عضوي يتصل به اللّسان أثناء حركته في الفم و أثناء النطق بالأصوات، و ينقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام:

أ- أدنى الحنك: الجزء الأمامي منه، و فيه توجد اللثة و الأسنان.
ب- وسط الحنك: و هو الجزء الصلب منه.
ج- أقصى الحنك: يمثل الجزء الرخو منه ويقع بالقرب من اللّهاة*.

6- اللّثة: تقع بين الأسنان، و الحنك الأعلى و شكلها مُحدب، و هي مكان إنغراز الأسنان و تلتقي مع طرف اللّسان لإنتاج الحروف اللّثوية.

7- الشفتان: عضوان متحركان يقعان في مقدمة الفم و لهما دور كبير في عملية النطق بالأصوات اللّغوية، و دور الشفة السفلى أهم من العليا. و للشفتين ثلاث خصائص عضوية هي:[1]

أ- الانطباق و التصاق الشفتين بصفة محكمة بحيث لا تسمحان للهواء بالمرور لفترة زمنية معينة.
ب- الانفراج أو الانفتاح: هو ابتعاد الشفتين عن بعضهما بعد انطباقهما و يتم إثر ذلك اندفاع الهواء محدثا صوتا انفجاريا، و ذلك أثناء النطق ببعض الأصوات الانفجارية.
ج- الاستدارة: و هو تشكل الشفتين في شكل دائري.

* اللّهاة: قطعة لحمية متدلية تقع في أقصى الفم من الجهة العليا، و تظهر لنا عند انفتاح الفم انفتاحا تاما.
[1]- يُنظر: نصر الدين بن زروق، المحاضرة الثالثة في مادة: لسانيات عامة، المدرسة العليا لتكوين الأساتذة في الآداب و العلوم الإنسانية، بوزريعة، 205 2006، ص: 109-111.

8- تصنيف الأصوات اللّغوية:

تصنف الأصوات تقليديا* بناء على ثلاثة متغيرات:

1) نشاط الحنجرة التي تحتوي الوترين الصوتيين، و به نحكم على الصوت بأنه مجهور أو مهموس.
2) المكان الذي يكون فيه أقصى الضغط (ضغط الهواء)، و يسمى موضع النطق أو مخرج الصوت.
3) كيفية إنتاج الصوت في الفم أو الحنجرة، و يسمى طريقة النطق و تحدد هذه الكيفية بعنصرين: هما صفات الحروف و شكل مرور الهواء (باعتراض أم بدونه)[1].

9- مخارج الأصوات اللّغوية:

استفادت الدراسات الصوتية بما توصل إليه العلم في بعض التخصصات و بخاصة تلك التي لها علاقة بالجهاز الصوتي للإنسان، كعلم الطب، و البيولوجيا و اختراع الآلات الكاشفة استفادة مكنتها من إعطاء وصف دقيق لمخارج الأصوات، مما أدى إلى تقديم تصنيف يتناسب مع هذا التطور.

1) المخرج الشفوي (Lalibale): يتحقق هذا المخرج باقتراب الشفتين من بعضهما و ينقسم إلى:
   أ- مخرج شفوي مزدوج (Bilabiale): تطابق كلي للشّفتان بحيث لا تسمحان للهواء الصاعد من الرئتين بالمرور.
   ب- مخرج شفوي أسناني (Labiodentale): التقاء الشفة السفلى بالأسنان العليا، بالإضافة إلى حدوث تضيق في مجرى الهواء.
2) المخرج الأسناني (Dental): اتصال طرف اللّسان أو الذولق بالأسنان و ينقسم إلى:
   أ- أسناني منبسط (Apicales plate): يحدث عند انخفاض اللّسان نحو الأسفل.
   ب- بين الأسنان (Inter dentale): و ذلك عندما يتوسط اللّسان الأسنان العليا و السفلى.
   ج- الأسناني اللّثوي (Apico-alvéolaire): يتم عند اتصال طرف اللّسان بالأسنان العليا أو مقدمة اللّسان باللّثة.
   د- الأسناني الرجعي (Palatale): يتم أثناء اتصال سطح اللّسان بالحنك.

* التصنيف التقليدي: هو كل تصنيف يعتمد على الوصف الفيزيولوجي، و منه التصنيف الذي عرفت به المدرسة البنوية في الفونولوجيا لدى تروبسكوي و مارتيني.

[1]- الطيب دبه، مبادئ اللّسانيات البنوية، دراسة تحليلية ابستيمولوجية، ص: 166.

3) مخرج الصافرات و الشينات (Sifflantes, Chuintantes): و يكون ذلك بامتداد اللّسان في قاع الفم، و يتخذ مجرى يمكن الهواء من المرور و ينقسم إلى قسمين:
أ- الصافرات (Sifflantes): تحدث عندما تتصل مقدمة اللّسان بالحنك الأمامي.
ب- الشينات (Chuintantes): تحدث عند اتصال مقدمة اللّسان بالحنك الأوسط.
4) المخرج اللّهوي (Uval aine): يتحقق هذا المخرج عندما يلتقي أقصى اللّسان باللّهاة.
5) المخرج الحنجري (Laryngale): يتحقق هذا المخرج عندما تتوقف حركة الوترين الصوتيين، و يتقلص الغشاء الداخلي للحنجرة.[1]

هذه باختصار أهم المخارج الصوتية في الدراسات اللّسانية الحديثة، و قد تم بموجب هذه المخارج تصنيف الأصوات الصامتة في اللّسان العربي على المنوال التالي:

1) الشفوية المزدوجة (Bilabiales): مخرج: الباء،الميم،الواو و حركة الضم.
2) الشفوية الأسنانية (Labiodentales): مخرج: حرف الفاء.
3) بين الأسنانية (Interastrales): مخرج: الضاء،الذال و الثاء.
4) الأسنانية اللّثوية (Apicale alvéolaire):مخرج: الضاد،الدال،الطاء،التاء،الزاي،الصاد والسين.
5) اللّثوية المائعة (Alvéolaire liquides): مخرج: اللام، الراء و النون.
6) الحنكية الأمامية (Pripalatales): مخرج: الشين، الجيم، الياء، و حركة الكسر.
7) الحنكية الخلفية (Posta palatales): مخرج: الكاف.
8) اللّهوية (Vélaires): مخرج: القاف، الغين و الخاء.
9) الحلقية (Pharyngales): مخرج: العين و الحاء.
10) الحنجرية (Laryngales): مخرج: الهمزة،الهاء و حركة الفتح.[2]

10- صفات الأصوات:

يُراد بصفات الأصوات: تلك الخصائص و الملامح النطقية التي تتميز بها الأصوات، و تختلف بها عن غيرها، و تتمثل هذه الصفات فيم يلي:

[1]- أحمد حساني، مباحث اللسانيات العامة، ص: 81-83.
[2]- الطيب دبه، مبادئ اللّسانيات البنوية، دراسة تحليلية ابستيمولوجية، ص:168.

1) الأصوات الشديدة الانفجارية (Occlusives): يتحدد وصف هذه الصفة انطلاقا من معاينة حدوث الصوت الذي ينسدّ فيه الهواء بفعل حاجز عضوي، ثم فجأة ينفرج فيحدث انفجارا، و هي الصفة للحروف التالية: (ب، ت، د، ط، ض، ك، ء، ج).
2) الأصوات الرخوة أو الاحتكاكية (Fricatives): هي الأصوات التي لا ينغلق فيها مجرى الهواء انغلاقا تاما عند النطق بها، بل يضيق نسبيا، و هذه الصفة هي للحروف التالية: (س، ز، ص، ش، ذ، ث، ظ، ف، ه، غ، ع، ح، خ).
3) الحروف البينية (بين الرخاوة و الشدة)(Sonantes): و هي الحروف التي يكون فيها الحاجز أمام مرور الهواء أخفى ما يُمكن بحيث تشبه الحركات (التي يمر فيها الهواء بلا اعتراض) و هي: (ل، ن، م، و، ي).
4) الحروف الشديدة الرخوة (Affriquées): هي الحروف التي تبتدئ شديدة و تنتهي رخوة و تكون تأديتها مركبة مثل: الجيم التي ينطق بها (دج)، أو الشين التي ينطق بها (تش)، حيث تحتوي على جزء شديد في أولها ثم تنتهي رخوة.
5) الحروف المائعة (Liquides): و هي الحروف التي يتم فيها اعتراض الحاجز للهواء دون أن يحدث احتكاك أو صفير، و هي مثل: الراء و اللام و النون.
6) الأصوات الأنفية: هي الميم و النون حيث تمر من الممر الأنفي.[1]
7) الأصوات المجهورة (Sourdes): و هي الأصوات التي يصاحبها اهتزاز في الوترين الصوتيين إذ يحدث ما يسمى ب "الذبذبة Vibration" و هي: (ب، ج، د، ذ، ر، ز، ض، ظ، ع، غ، ل، م، ن)، و تضاف إليها الواو و الياء (في العربية).
8) الأصوات المهموسة: و هي الأصوات التي لا يصاحبها اهتزاز في الوترين الصوتيين و هي في العربية: (س، ك، ن، ف، ح، ث، ه، ش، خ، ص، ق، ء، ط).
9) التفخيم و الترقيق: هما أثران صوتيان يصاحبان- بشكل تناوبي – نطق صوتي: اللام و الراء، و يتم ذلك تبعا لظروف السياق الوارد فيه كل منهما. و هناك أصوات يلازمها التفخيم مثل: (ص، ط، ظ، ض،ق، غ، خ)، و ما سوى ذلك فهو مرقق.[2]

10) الاستفال (أو الانخفاض) و الاستعلاء: المستعلية في اللّسان العربي كما هو محدد ،هي: (ص، ض، ظ، ط، ق، غ، خ) و ما سواه فهو منخفض.

11) الإطباق (Vélarisation): تحدث هذه الظاهرة الصوتية حينما يرتفع مؤخر اللّسان نحو الطبق (و هو الحنك الأعلى). و الأصوات المطبقة في اللّسان العربي هي:(ص، ض، ط،ظ) و الإطباق فيها يعتبر صفة تمييزية إذ لولا الإطباق لصارت الطاء دالا و الصاد سينا و الظاء ذالا و الضاد دالا.[3]

[1]- أحمد حساني، مباحث اللّسانيات العامة، ص: 86-87.
[2]- المرجع نفسه، ص: 88-89.
[3]- يُنظر: الطيب دبه، مبادئ اللّسانيات البنوية، دراسة تحليلية ابستيمولوجية، ص: 169-170.

11- التّنغيم و النّبر:

يعتبر كلّ من النّبر و التّنغيم من الملامح الصّوتية غير التّركيبيّة في التّحليل اللّغوي لأنّها لا تدخل في جوهر التّراكيب النّحويّة، أي تقع خارج البنية اللّغويّة، و لكل منهما تأثيره الخاص على البنى الوظيفية و دور خاص في تغيير المعنى.

1- التنغيم (Intonation)

التّنغيم من أهم القرائن اللّفظيّة لتحديد معنى الكلام، فهو يعني الارتفاع أو الانخفاض في طبقة أو درجة الصّوت، و يرتبط هذا الارتفاع أو الانخفاض بتذبذب الوترين الصّوتيين اللّذين يحدثان النّغمة الموسيقيّة، أي أنّ التّنغيم بهذا المفهوم يدلّ على العنصر الموسيقي في نظام اللّغة.[1]

فكلّ ارتفاع في الصّوت يطابق تواترا تدريجيا في وظائف أعضاء النّطق، كما ينجم عنها في نهاية القول انخفاض للصّوت مناسب لاسترخاء متدرّج.[2]

فالمعنى الصّحيح للقول حسب مارتيني يختلف بحسب الدّرجة التي يصل إليها الصّوت في علُوِّه و انخفاضه، فالنّغمة شديدة الانخفاض تتضمّن التّوكيد القويّ ويكون الإثبات أقل قطعيّة كلّما كان انحدار النّغمة أقلّ سرعة، و عند ارتفاع المنحى التّنغيمي نمرّ دون شعور إلى إثباتات يلوّنها الشّك، وإن تزايد الشّك نمر إلى أسئلة يقوى فيها الشّك.[3]

نعلم أنّ الصّوت ينتج عن طريق اهتزازات الأوتار الصّوتيّة، و هذه الاهتزازات تفترض تشنّج هذه الأعضاء، فعندما يتشنّج الوتر الصّوتي تشنّجا قويّا فإنّه يهتزّ على علامة خافتة و هذا هو حال الأوتار الصّوتيّة، و لحن الخطاب(الذي ينتج) هو إذا إلى حدّ ما آلي، أي أنّ المتكلّم لا يختار بين وجوده و عدم وجوده على الرّغم من أنّ خياراته و استعمالاته اللّسانيّة محدودة بهذا الشّكل فإنّه مع ذلك يؤدي دور تختلف أهمّيته و طبيعته اختلافا بيّنا من لسان إلى لسان آخر و تستعمله بعض الألسن في شكل وحدات تمييزيّة النّغمات.[4] وظيفة هذه النّغمات تميزيّة، فالنّغمة لا توجد إلا بالتّقابل مع نغمة أخرى على الأقلّ، و عليه فاللّسان له نغمات و ليس له على الإطلاق نغمة واحدة.[5]

فالتّنغيم إذا يلعب دورا فعّالا في التّقرير و التّوكيد و التّعجب و الاستفهام و غيرها من أنواع الفعل الإنشائي، و هذا عن طريق التّلوين في الدّرجات التّنغيميّة بمستوياتها العليا و المتوسّطة و الهابطة، و من شأنه أن يعرّفنا على مواقف المتكلّمين من خلال تنوّع ظهورها من لسان إلى آخر، و هو ظاهرة صوتيّة تشترك فيها معظم اللّغات كونها تؤثّر في تغيّر الدلالة دون أن تتغيّر المفردات، و كمثال نذكر: عند(ll

[1]- صبيح التّميمي: دراسات لغويّة في التّراث القديم، صرف نحو تركيب دلالة معاجم، مناهج البحث، ط1، 2003، ص163.
[2]- أندري مارتيني: مبادئ في اللّسانيات العامّة، ص25.
[3]- المرجع نفسه، ص25.
[4]- المرجع نفسه، ص78.
[5]- المرجع نفسه، ص78.

pleut) في التّنغيم بصفة الهبوط نجده كلام عادي، أمّا التّنغيم في صفة الصّعود باستعمال علامة الاستفهام (? Il pleut) يكون التّنغيم هنا على شكل استفهام أو تعجّب أو دهشة.

2- النّبر(Stress):

يعرفه مارتيني أنه: " إبراز لقيمة مقطع صوتي واحد في ما تمثله الوحدة النبرية، و الوحدة النبرية في أغلب الألسن هي ما جرت على الألسن تسميتها للفظة".[1]

فالنّبر إذن هو وضوح صوت معين إذا قورن ببقية الأصوات و المقاطع في الكلام، و يرتبط حدوث النّبر عند مارتيني وفق درجة عُلو الصوت و انخفاضه (درجة اللّحن)، و درجة القوة (قوة الأداء)، و المدة الحقيقية أو المسموعة للمقطع الصوتي و التي تُمكن من وضع سلم المقاطع الصوتية في القول، و يختلف من لسان إلى لسان آخر.[2]

و للنبر وظيفة تمييزية، أي أنها تساهم في تفريد اللّفظ أو الوحدة التي تخصصها بالنسبة للوحدات الأخرى من نفس الضرب الموجودة في نفس القول، و اللّسان الواحد له نّبرة و ليس له نّبرات.[3] فموقع النّبر هو الذي يساعدنا على التعرف على اللّفظ، و النّبر هو الذي يُسمع قبل غيره بحيث أننا نتعرف على المقطع الصوتي المنبور بالتباين مع المقاطع الصوتية غير المنبورة المجاورة. و هذا يتضمن أن جميع العناصر الضرورية للتعرف على اللّفظ يعرضها المتكلم و هي بالفعل موجودة في القول و السامع يسجلها دون انفعال.[4]

و لمعرفة مواضع النّبر يجب النظر إلى المقاطع الصوتية التي تتكون منها اللّفظة، فهو يساعد على ملاحظة وجود بعض الأداءات المهمة في القول و هكذا فإنه يسهل تحليل الخطاب سواء كان موضعه متوقعا أو غير متوقع، لأنه يمكن من تدقيق الخطاب، بالعمل على تغيير أهمية إبراز القيم المتتالية الخاصة بكل نبرة.[5]

هناك بعض المقاطع المنبورة يكون فيها النبر في المقطع الأول مثل:(Gord) الروسية كما يكون في المقطع الثاني منبورا مثل(Saboka) الروسية أيضا و ينطبق هذا على الكلمات البسيطة مثل:(Father) الانجليزية و (Vater) في الألمانية بمعنى والد في كلتا اللّغتين، كلاهما منبورة على المقطع الأول، أما كلمتي (Caveer) و (Kartoffel) فهي منبورة على المقطع الثاني.

[1]- أندري مارتيني: مبادئ في اللّسانيات العامة، ص 82.
[2]- المرجع نفسه، ص 83.
[3]- المرجع نفسه، ص 84.
[4]- المرجع نفسه، ص 85.
[5]- المرجع نفسه، ص 84.

أ- نغمات و نبرات:

النغمة هو اختلاف الارتفاع داخل الكلمة بحيث يمكن وضع كلمتين مكونتين من سلسلة واحدة من المصوتات في تقابل، حيث لا نستطيع أن نحدد في اللّغة النغمية تحديد كلمة أو وحدة صوتية دالة بصورة كاملة، إلا بعد أن تتحدد نغمتها مثلما نحدد وحداتها الصوتية؟، مثلا كلمة (إجاصة) و (كستناء) تحملان نفس التسمية في اللّغة الصينية و هي (لي)، فاللّغة الصينية لها أربع نغمات: مرتفعة ثابتة، مرتفعة صاعدة، منخفضة صاعدة، منخفضة نازلة، كلمة الإجاصة لها نغمة صاعدة ، أما كستناء لها نغمة هابطة.

12- الصّوامت و الصّوائت:

1- الصّوامت (Consonants)

إن الصوت الصامت هو الصوت المجهور أو غير المجهور الذي يحدث نتيجة اعتراض أو عائق في مجرى الهواء اعتراضا كاملا (كما في حالة الباء)، أو اعتراض جزئي من شأنه أن يمنع الهواء من أن ينطلق من الفم دون احتكاك (الفاء و الثاء).[1] فهي تلك الأصوات اللّغوية التي لا تسمع جيدا إلا بالاعتماد على صائت يسبقها أو يلحقها، فأي صوت يصدر من الجهاز النطقي و يعترض مجراه عائق عضوي جزئي أو كلي يكون صوتا صامتا.

2- الصّوائت (Vowels)

هي الأكثر استخداما"، و لعل السر في ذلك يعود إلى طبيعة إنتاجها و صفاتها التي تتميز بالنطق المفتوح (Open articulation)، بالإضافة إلى خاصيتها الصوتية العالية.[2]

فالحركة صوت مجهور يحدث أثناء النطق به،مرور الهواء عبر الحلق و الفم دون أي اعتراض لمجراه، فيكون حينئذ صوتا صائتا.

و الصوائت نوعان صوائت قصيرة متمثلة في (ـَ ، ـُ ، ـِ)، أما ما يقابلها بالفرنسية هي (a, o, i)، أما الصوائت الطويلة فهي: الألف، الواو، و الياء. وهذه الصوائت تصنف حسب أعضاء النطق (الشفتين و الأنف)، و كذلك درجة انفتاح الممر الهوائي (الحنجرة) بالإضافة إلى عمل بعض الأعضاء على الجهر و الهمس (الوترين الصوتيين).

من خلال التعريفين السابقين لكل من الأصوات الصامتة و الأصوات الصائتة، يتضح أن الصوائت كلها مجهورة، فأما الصوامت فمنها الجهور و منها المهموس.

[1]- محمود السعران: علم اللّغة، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت،ص 114.
[2]- عبد القادر عبد الجليل: علم الصرف الصوتي، دار صفاء للنشر و التوزيع،ط1، عمان،2010، ص 92.

13- العيوب النّطقيّة حسب مارتيني:

لاحظ أندري مارتيني أنّ استخدام الطّفل للّسان مقارنة مع استخدام البالغين تعترضه شوائب و انحرافات و صعوبات في النّطق خلال مراحل عمره الأوّليّة(منذ ولادته و في المدرسة).

و من بين هذه الشّوائب و الانحرافات ذكر مارتيني في كتابه "وظيفة الألسن و ديناميّتها" كما يلي:

القرقرة: تبدأ عندما يطلق الولد الصّرخة الأولى، فعندما يدخل الهواء إلى رئتيه محرّكا بمروره المزمار. و هذا بالضّغط على اللاّزم لإخراج الهواء من الرّئتين و يستمر هذا الطّور(القرقرة) خلال الفترة التي يُرسل الطّفل فيها أصوات عميقة النّطق تُدوّن بطريقة تقريبيّة جدا على أنّها[جرررر....جرررر]، و هذا ناشئ عن التّشويشات و الاحتكاكات الصّادرة عن مرور الهواء في بلعوم الولد المستلقي على ظهره، و كثير من الأولاد يلهون بهذا الأمر كي يلفتوا انتباه البالغين، كما يلهون بإطلاق صرخات و نتاجات صوتيّة لا نفكّر عموما في تقريبها من الكلام.[1]

التّغثغة: يبدأ هذا الطّور انطلاقا من اللّحظة التي يلهو الولد خلالها بإحداث أصوات إذا كان المقصود و الحالة هذه لعبا، فالصّفة المجانيّة لهذا النّشاط نشير إليه، و ليس الموضوع أن يحرّر بلعومه من التّسرّبات المزعجة، و اللّحظة التي يؤثّر بها في محيطه لغايات محدّدة لم تصل بعد و هذا ما ندعوه بفترة التّغثغة، و تبدو النّتاجات الصّوتيّة إذا أكثر بتنويعها، فالشّفتان و طرف اللّسان التي لم تتدخّل قط في الطّور السّابق، تدخل غالبا العمل، و لكنّها لا تستبعد عمليات نطق أكثر عمقا.[2] فهي ظاهرة غير لغويّة تثبت تقريبا في سنّ الأربعة أشهر، فمثلا عندما يشير الولد إلى أبيه بمحبّة ك: papa يعبّر عنها ب: papapa أو bababa ناشئة عن التّغثغة.

المصادّاة*: هو مثلا أن يكرّر الولد ثانيّة في المحاكاة منحى تنغميّا ما، تَتَابُعَ فونيمات ما لمحكيّة البالغين، فحالما ينطق البالغ كلمة(quatre)(أربعة)، يستعيد الولد مقطع[ka] علما أنّه لا يتكلّم اللّسان بعد، و لهذا الغرض ينبغي عليه أن يكون قادرا على إحداث قطع صوتي معيّن، لا كمحاكاة و لكن دون صلة بظرف خاص أو بغرض معيّن، غير أنّ الضغط الذي يلزم الولد نفسه به في التّكرار التّرجيعي يمثّل تقدّما ملحوظا بالنّسبة إلى التّقليد الفوضوي المتمثّل في التّغثغة.[3]

---

[1]- أندري مارتيني: وظيفة الألسن و ديناميّتها، ص130.

[2]- أندري مارتيني: وظيفة الألسن و ديناميّتها، ص130.

* écholabie: التّرديد المرضي لما يقوله الآخرون(أنظر أندري مارتيني: وظيفة الألسن و ديناميّتها، ص131.)

[3]- أندري مارتيني: وظيفة الألسن و ديناميّتها، ص132.

14- لسان مكتوب و لسان منطوق:

إنّ الاعتقاد بوحدة كل لسان وطني و انسجامه ليس من آثاره فقط أن ينسي تنوّع الظّروف اللّسانيّة داخل حدود كل دولة، و لكن الإقناع بضرورة وجود تماثل بين اللّسان الذي يتكلّمه شعب و اللّسان الذي يكتبه خطأ.[1]

فمارتيني يرى أنّه لدراسة اللّغة الإنسانيّة علينا قبل كلّ شيء دراسة الألسن كما ننطق بها لأنّ الإنسان يتكلّم قبل أن يكتب و لأنّه يرى أنّ اللّسان يملك وجودا مستقلاّ عن الحقيقة التي يصفها أو الطريقة التي نكتب بها، فالشّخص المتكلّم للسان ما دون لسان آخر: المسألة عنده لا يمكن أن تكون في الفصل بين الشيء الذي يود قوله مثلا كلمة (كرسي) و بين الأصوات التي توافقه في المنطوق، إذ ينبغي على الكلمة و الشّيء أن يختلطا، و الكلمة ينبغي أن لا تترجم بل تكوّنه.

كما أنّ مارتيني يرى أنّ كلّ النّاس يتكلّمون و لكن الوحيدون الذين يحسنون القراءة و الكتابة هم أولئك الذين أُخضعوا لتدريب نفّذ بانتباه في المدارس أو في العائلات، و هو لم ينظر مطلقا حتى يومنا هذا في أن يضبط مناهج خاصّة كي نكتسب تملّكنا للّسان المنطوق، فهو على اقتناع أنّه يحصل من تلقاء نفسه، و الدّليل هو في أنّ كلّ النّاس يتكلّمون و بخلاف ذلك مازالت هناك أمم تتكلّم فحسب و لا تملك نظام كتابة، و بحسب رأيه أنّه من الطبيعي أن يتكلّم المرء و لكن القراءة و الكتابة شأن ثقافي.

يشير مارتيني إلى أنّ استعمال اللّغة هو من طبيعة الإنسان، و لكن حينما يتعلّم الولد أن يتكلّم، فهو لا يكتسب تملّكا للّغة بل تمكّنا للسان مخصوص هو أداة التّواصل و الثّقافة لمتحدّ اجتماعي معيّن.[2]

نستنتج مما سبق ذكره أنّ مارتيني يسبق المنطوق دائما على المكتوب، و أنّ النّظام الكتابي للسان ما عنده هو دائما منطلق و نسخ مطور تقريبا لبنية المنطوق.

15- لسان أم، مزدوجو اللّسان و أحاديّو اللّسان:

مزدوجو اللّسان هي الحالة التي يستعمل فيها نفس الشخص لسانين بنفس درجة الإتقان التي لا علاقة لها البتّة بالحالة التي يتكلّم بها الفرد أحيانا بدرجة عالية من السهولة لسانا أو عدّة ألسن غير اللّسان الأوّل المكتسب و المسمى الأمّ.[3] و المقصود بهذا الأخير أيضا: اللّسان الأوّل المكتسب و يمكننا أن نماثل لسان أوّل مكتسبا ب"إتقانه"، فلا معنى لهذا الكلام لأنّ هذا اللّسان الأوّل-في أغلبية الحدّ للحالات- لا يستعمل وفق المعايير الموضوعة، و يمكن القول أنّ اللّسان مستعمل لإرضاء المحيط

[1]- المرجع نفسه، ص132.
[2]- المرجع نفسه، ص116-117-119.
[3]- أندري مارتيني: وظيفة الألسن و ديناميّتها، ص145.

شرط أن لا يتغيّر هذا المحيط أثنا المسار، و المحيط الذي ماثل الفرد وصفه منتميا إل المتّحد الاجتماعي يقبل سلوكه اللّغوي مهما كانت نوعيّته.[1]

و يقصد بأحادي اللّسان أنّ المتكلّم لا يتكلّم بإتقان، و إنّما يتكلّم بكيفيّة ترضي محيطه المباشر حيث يعرف انتماءه للمجموعة، و هذه الفئة من المتكلّمين لا يدرجون البتّة في اتصالاتهم اللّسانيّة إلا مركّبا واحدا من العادات فيستعملون على الدّوام نفس البنية لوظائف الأصوات، و نفس التّصريف و نفس النّحو و حتى نفس المعجم، و أحادي اللّسان ينعم ببعض الخيرات التي تمنحه إياه بنية اللّسان.[2]

[1]- المرجع نفسه، ص157.
[2]- المرجع نفسه، ص146.

المبحث الثّالث: التّواصل عند كلّ من الجاحظ و أندري مارتيني

1-مفهوم التّواصل:

أ- لغة:

ورد في لسان العرب أنّ الوصل ضدُّ الهجران، و التّواصل ضدّ التّصارم، و في الحديث: " من أراد أن يطول عمره فليصل رحمه "[1]؛ أي أنّ التّواصل إيصال ووصل لما ينقطع، إذ وصل بمعنى إتّصل، و التّواصل ضدّ التّهارم، ووصله توصيلا، إذا أكثر من الوصل[2]؛ بمعنى كما يضيف الفيروز أبادي " وصل و الوُصلة بالضّم الاتصال، و كلّ ما إتّصل بشيء فما بينهما وُصلة"[3]؛ أي إنّه العلاقة التي لا تهدف إلى الفصل بقدر ما تسعى إلى تحقيق العلاقات فيما بين العناصر مهما كانت؛ يقول نور الدين رابض: « أُفضّل أن تترجم كلمة communication) بالتّواصل لأنّ فيها تفاعلا. »[4]، حيث يشارك المرسل المستقبل في هذه العمليّة، و هو ما نلاحظه في تحديد القُدامى للتّوصيل و الاتّصال من النّاحية اللّغويّة.

يفيد التّواصل في اللّغة العربيّة الاقتران و الاتصال، و الصّلة و التّواصل و الإعلام، أما في اللّغة الأجنبيّة فكلمة communication تفيد إقامة تراسل و تبادل و إخبار بين شخصين، فنجد أنّ هناك تشابها بين المفهومين بين العرب و الغرب.

ب- اصطلاحا:

يذهب إيفيس فانكين(yves winkin) إلى القول أنّ: " تواصل communiquer و التّواصل communication ظهريا في اللّغة الفرنسية في النّصف الثاني من القرن 14م ، فالمعنى الأصلي الذي هو" شارك في" قريب جدّا من اللاّتينيّة و فعلها (communicare) و تعني الوضع داخل وحدة و الوجود في علاقة.[5]

و قد عُرّف على أنّه: " تبادل كلامي بين المنتج الذي ينتج ملفوظا أو قولا مُوجّها نحو مُتكلّم آخر يرغب في السّماع أو إجابة واضحة أو ضمنيّة و ذلك تبعا للملفوظ الذي أصدره"[6]

فعندما يتواصل شخصان، فإنّ المتكلّم يُنتج ملفوظا بوجهه نحو السامع الذي يستجيب بدوره لمضمون الرّسالة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

---

[1]- ابن منظور: لسان العرب، ج11، ص870

[2]- المعنى ذاته بالتّعبير عينه الذي يريده الرّازي في مختار الصّحاح ص316.

[3]- القاموس المحيط، ج4، ص66.

[4]- نور الدّين رابض: نظريّة التّواصل و اللّسانيات الحديثة، ص20-21.

[5]- نقلا عن: نور الدّين رابض، اللّسانيات المعاصرة في ضوء نظرية التّواصل، ط1، عالم الكتب الحديث، المغرب، 2014، ص21.

[6]- عبد الجليل مرتاض: اللّغة و التّواصل، دار هومة، الجزائر، 2003، ص78.

و يعرّفه بعضهم الآخر على أنه: " العمليّة التّي بها يتفاعل المراسلون و المستقبلون للرّسائل في سياقات اجتماعيّة معيّنة."[1]

كما عرّفه نجرو (Négro)على أنّه "العمليّة الّتي تجعل أفكار الشّخص و مشاعره معروفة للآخرين."[2]

و هناك أيضا من يعرّفه على أنّه "تبادل أدلّة بين مراسل و ذات مستقبلة حيث تنطلق الرّسالة من الذّات الأولى نحو الذّات الأخرى، و تقتضي العمليّة جوابا ضمنيّا أو صريحا عمّا تتحدّث عنه الّذي هو الأشياء و الكائنات، أو بعبارة أشمل(موضوعات العالم)، و يتطلّب نجاح هذه العمليّة اشتراك المرسل إليه في السّنن حيث يتمّ الإسنان و الإستنان على الوجه الأكمل عمّا أراد له المجتمع اللّغوي، كما تقتضي العمليّة قناة تنقل الرّسالة من الباحث إلى المتلقّي."[3]

يركّز هذا التّعريف على عناصر العمليّة التّواصليّة من مرسل، مستقبل، سنن و قناة، كما ربط نجاح العمليّة التّواصليّة بإشراك المتواصلين في نفس الشّفرة اللّغويّة.

و بناءا على ما سبق، فإنّ التّواصل عمليّة تفاعليّة بين شخصين أو أكثر يهدف إلى نقل المعلومات و تبادلها، أو تعديل و تغيير سلوك الطّرف الآخر.

2-التّواصل اللّغوي عند الإنسان و معه:

يعرف التّواصل بأنّه: "عمليّة يستطيع بواسطتها طرفان أن يشتركا في فكرة أو مفهوم أو إحسان."[4]، كما يعرّف أيضا " العمليّة الّتي يتمّ بها نقل فكرة أو خبرة شخص لآخر، بحيث تؤدي إلى عمليّة المشاركة في الخبرة ذاتها."[5]، هذا يعني أنّ التّواصل حوار يشترط وجود شخصين موجودين بالفعل(متكلّم و مستمع) تكون لهما نفس الفكرة أو المفهوم، حيث يتبادلان الخبرات و الأفكار، و هو الأمر الّذي يؤكّده سوسير في قوله: " إذا أردنا أن نبحث في مجموع الكلام عن المجال الّذي يناسب اللّغة، فينبغي لنا أن نفحص العمليّة الفرديّة الّتي تمكّن تشخيص دورة الخطاب، و يفترض في تلك العمليّة وجود شخصين على أقل تقدير، فهو أدنى ما يطلب حتّى تكون الدّورة تامّة"[6]، فقول سوسير هنا "على أقلّ تقدير"تعبير لإمكانيّة كون عدد المتواصلين أكبر؛ معنى هذا أنّ قيمة اللّغة إيصال، و قيمة الإيصال اجتماع، فاللّغة مؤسّسة اجتماعيّة قبل كلّ شيء[7]. و ما يجب الإشارة إليه من خلا ما ذكرناه أنّ التّواصل في كثير من الأحيان إن لم يكن في الغالب يتجاوز اللّغة إلى

[1]- جميل حمداوي: التّواصل في اللّغة و التّواصل التّربوي و الثّقافي مُقاربات نفسيّة و تربويّة، ط1، 2008، ص54.
[2]- نقلا عن: مختار بروال، الكفاءة التّواصليّة في الإدارة المدرسيّة ، أطروحة لنيل شهادة الماجستير في اللّغة و الأدب العربي،جامعة الحاج لخضر-باتنة، 2009/2008، ص 50
[3]- نقلا عن: كايسة علّيك: المرجعيّة اللّسانيّة للمقاربة التّواصليّة في تعليم اللّغات و تعلّمها، أطروحة دكتوراه، جامعة مولود معمري تيزي وزو 2015/11/18،ص50
[4]- محمد سعد القزاز: الفكر التّربوي في كتابات الجاحظ، دار الفكر العربي، مصر، ط1، ص 238.
[5]-المرجع نفسه، ص 238.
[6]- فردناند دي سوسير، دروس في الألسنيّة العامّة، تعريب صالح القرمادي محمّد الشّاوش، محمّد عجينة، ص31.
[7]- المرجع نفسه، ص37.

ما هو غير لغوي. الأمر الّذي نلحظه عند الجاحظ حيث يرى أنّ التّواصل عند الإنسان لا يكون لغويا بحتا، بل سيستعين الإنسان أثناء العمليّة التّواصليّة بالإشارات و الرّموز وغيرها من مستويات التّعبير عند الجاحظ، كما نجد الجاحظ يبحث عن نهوض اللّغة الّتي يسمّيها البيان حيث يقال: " إنّ الجاحظ رسم الحدود العامّة لدراسة اللّغة حيث تقترن كلمة البلاغة بما نسمّيه بما نسمّيه الآن باسم التّواصل، لأمرها ارتبط هذا التّواصل بالإفصاح."[1] فلقد كان الجاحظ حريصا على معنى البيان في كتابه البيان و التّبيين، فمن خلال كلام الجاحظ، يفيد إطلاق البيان على كلّ ما يكشف المعنى بلفظ أو غيره و هو يحصرها في خمسة هي اللّفظ و الخطّ و العقد و الإشارة و النّصبة.[2] حيث لا تكون حركات اللّسان لفظا و لا كلاما موزونا و لا منثورا إلّا بظهور الصّوت. و الصّوت و اللّفظ شريكان متكاملان يعين كلّ منهما الآخر[3]، كما يكون التّواصل حسب الجاحظ يغيّر اللّفظ باليد و الرّأس أو العين، فالإشارة يمكن لمتكلّمين أن يتفاهما و قد يكون أبعد مبلغا، ففي كثير من الأحيان نستغني عن اللّفظ و نستعمل الإشارة على أن تكون معروفة بين الطّرفين. يقول الجاحظ: " هذا و مبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصّوت."[4] كما أنّه أعطى أهميّة كبيرة للقلم لاستعماله كوسيلة للتّواصل اللّغوي فقال:" اللسان مقصور على الغريب الحاضر و القلم مطلق في الشاهد و الغائب و هو للغائب الحائن مثله للغائب الرّاهن."[5]

تعتبر اللّغة بهذا الشّكل نظاما يحوي وسائل الاتصال، ناهيك عن كون اللّسان الأداة الّتي تساهم في تحديد ماهيته. يقول أندري مارتيني في إطار مراجعته تعريف اللّسان: « لقد أخذوا عليّ استخدام أداة الاتصال هذا مبيّنين أنّ استخدامي له مجازي. أمّا و الحالة هذه، فالأداة تعين لمعظم النّاس مطرقة أو منشارا، و لا يمكن أن يسمّى لسان ما أداة، إنّه أكثر تعقيدا بكثير من ذلك. إنّني أعترف عن طيبة فاطر بذلك، هناك توسع مجازي لاستعمال مصطلح أداة، أمّا الاتّصال فهي بدورها مصطلح ملتبس قليلا، ثمّة وسائل اتصال هي: الحافلات الكهربائيّة و الأتوبيسات و القطارات، و علينا بالطّبع أن نحدّد بدقّة أنّ اِتّصال هنا تتضمّن الاتصال البلاغي.»[6]؛ أي مدى تأدية العلامة و الإشارة للمعنى، و تبليغها للمقصود للمقصود عند الأشخاص المتواصلين، علما أنّ العلامة الشّفهيّة هي جزء هامّ من هذه اللّغة إلى جانب كلّ ما هو مكتوب فهما يخدمان التّواصل بالدرجة نفسها؛ أي« لسان منطوق و لسان مكتوب.»[7]بلسان مارتيني، و هما وجها اللّغة الإنسانيّة؛ أي ما نفهمه من كلّ هذه الآراء المعاصرة الّتي تسعى إلى الإقرار بالرّبط الفعلي بين اللّغة و التّواصل، لاسيّما أنّ العلامات اللّغويّة و اللّغويّة جزء هامّ من الإبلاغ الّذي يستخدمه الإنسان في المجتمع حتّى

[1]- مصطفى ناصف: اللّغة و التّفسير و التّواصل، عالم المعرفة، 1995، ص93.
[2]- البيان و التّبيين، ج1، ص76.
[3]- المصدر نفسه، ج1، ص78.
[4]- المصدر نفسه، ج1، ص79.
[5]- المصدر نفسه، ج1، ص79-80.
[6]- قام مارتيني بمراجعة لمفهوم اللسان الّذي أورده في كتابه Elément de Linguistique Générale بعد عشرين سنة من ذلك التّعريف، قد دّم تعريفا مراجعا له في كتابه "وظيفة الألسن و ديناميتها"، أندري مارتيني: وظيفة الألسن و ديناميتها، ص36.
[7]- المرجع نفسه، ص116.

يحافظ على علاقته بالآخرين، و كلّ هذه الآراء و الدّروس هي نتيجة حتميّة للطّابع المنطقي الّذي يجب على اللّغة أن توفّره بين المتواصلين.[1]

لم يكتف الجاحظ في تحديده لأنواع العلامات التّواصليّة عندما ذكرناه سابقا فحسب، بل ذهب كذلك إلى توضيح قيمة اللّفظ، حيث يرى حلمي خليل في كتابه " دراسات في اللّغة و المعاجم" بأنّ اللفظ عند الجاحظ مصطلح يعادل مصطلح اللّغة المنطوقة اصطلاح علماء اللّغة الآن[2]، ففي اللّغة لسانان(لسان منطوق ولسان مكتوب) حسب ما يؤكّده المحدثون الّذين نذكر منهم أندري مارتيني في وظيفته حيث يقول: « عندما يعلن ألسنيّ أنّهكي نفهم ما اللّغة الإنسانيّة ينبغي علينا أن ندرس قبل كلّ شيء الألسن كما ننطق بها، وعندما يذكر بأنّ الأولاد يتكلّمون اللّسان قبل أن يكتبوه ويقرأوه، و أن كثيرا من البالغين في العالم لا يحسنون لا القراءة و لا الكتابة، و أنّه لمازالت و مازالت هناك شعوب تتكلّم بالطبع، ولكنّها لا تملك نظام كتابة، فنحن نصغي إليه بتهذيب، و لكنّه تهذيب يعرف في أغلب الأحيان بشعور يزرع التّناقض، فكلما يقوله لا يمكن إنكاره بالتأكيد، و لكنّه لا يقنع بأنّ اللّسان كما ننطق به يملك وجودا مستقلّا عن الحقيقة الّتي يصفها، و كي نبدأ بالإحاطة بها على أنّها متميّزة ينبغي على اللّسان أن يظهر بشكل كلمات مكتوبة تفصل بياضات بعضها عن بعض.»[3]

فمارتيني يشير بقوله هذا إلى أنّ التّواصل يتمّ أو يتحقّق عن طريق اللّغة الشفويّة المنطوقة في كثير من الأحيان، ولكن و رغم القيمة التّواصليّة الكبيرة الّتي تحتلّها اللّغة المنطوقة، إلّا أنّ اللّغة المكتوبة أيضا لها أثرها البالغ في عمليّة التّواصل حيث تمثّل وجودا للأولى.

نفس الأمر نجده عند الجاحظ، فقد ميّز المكتوب عمّا هو صوتي لأنّه الأنسب لتحقيق التّواصل على مدى طويل و إن لم يشر إلى بشكل صريح، إنّما ركّز على قيمة اللّغتين الشّفهيّة و المكتوبة في التّواصل بين الأجيال و الشّعوب.

3-التّواصل اللّغوي عند الحيوان و معه:

قد يصعب الأخذ بهذا العنصر لأنّ ليس هناك لغة حيوانيّة بالمعنى الصّحيح إنّما هي عبارة عن أصوات مختلفة في أغلب الأحيان، و هذه الأصوات غير قائم فيها عنصر الإدراك في عمليّة تواصليّة مع الآخرين، و هي النّقطة الّتي يختلف فيها مع اللّغة الإنسانيّة.

ترتبط اللّغة ارتباطا وثيقا بالإنسان و بيئته، و تكمن أهمّيتها في كونها تتيح للإنسان إتمام عمليّة التّواصل و التّعبير بينه و بين غيره، و نظرا إلى أهميّة الأهمّيّة الّتي يحتلّها اللّغة في حياة الإنسان، فمن الطّبيعي أن يتساءل عن الخصائص الأساسيّة الّتي تجعل منها

[1]- نقلا عن: عايدة حوشي: نظام التّواصل السّيميولساني في كتاب الحيوان للجاحظ -حسب نظريّة بورس- أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللّغة و الأدب العربي، جامعة فرحات عبّاس سطيف، ص428.

[2]- ينظر: عايدة حوشي: نظام التّواصل السّيميولساني في كتاب الحيوان للجاحظ، عن حلمي خليل: دراسات في اللّغة و المعاجم، دار النّهضة العربيّة، بيروت، ط1، 1998، ص267.

[3]- أندري مارتيني: وظيفة الألسن و ديناميتها، ص 116.

ميزة خاصّة بالإنسان، و كيانا مختلفا مقارنة بمجموعة الأصوات الّتي بإمكان الحيوان إصدارها.[1]

تعتبر اللّغة الإنسانيّة ذات طبيعة خاصّة ترجع بالضّرورة إلى سمة الإنسان العقليّة و الإدراكيّة إضافة إلى تمكّنه من الإيصال الشّفوي و المكتوب، فإذا أردنا مثلا مقارنة لغة إنسان مثلا بالطريقة الّتي يمكن أن ينظر فيها إلى الذّباب سنواجه مشكلة في تحديد طبيعة اللّغة ذاتها، فالإنسان بإمكانه استخدام عدّة طرائق لإحداث هذا المفهوم، و ذلك وفق طبيعته الجينيّة[2]، في حين يبقى الذّباب حبسا لطابع خاص لا يمكن أن يتماثل أبدا فيه مع الإنسان.

نفس الفكرة نجدها عند جاكبسون الّذي يرى أنّ النّاظر في العلوم الأنثروبولوجيّة المتخصّصة نحو البيولوجيا تصبح أنواع التواصل الإنساني في جزء من حقل واسع من الدّراسات قد يعنون هذا الحقل " بطرائق التّواصل و أشكاله الّتي تستخدمها الأشياء الحيّة المنّوعة " فنواجه انقساما، فليست اللّغة فقط الّتي تختلف جوهريّا عن كلّ نظام تواصلي تستخدمه الكائنات غير النّاطقة بل جميع أنظمة التّواصل عن مستخدمي اللّغة، و تنطوي جميع هذه الأنظمة على وظيفة اللّغة الأساسيّة[3]ذلك أنّ الصّوت بطبيعته عند الإنسان أهم من غيره إذا قورن بالا إدراك عند باقي المخلوقات(الحيوانات).

و يضيف أن ما يفصل بدقّة بين الملمّحين هو بضع خصائص جوهريّة تفصل بشكل ملحوظ العلامات اللّفظيّة عن جميع أنواع الرّسائل الحيوانيّة: منها على سبيل المثال: قوّة اللّغة التّخييليّة و الإبداعيّة، و قدرتها على التّعامل مع التّجريدات و التّخيلات و التّعامل مع الأشياء و الحوادث بمعزل عن المكان و الزّمان...[4] حيث لا يمكن للّغة الإنسانيّة والحيوانيّة أن تكونا بالمستوى نفسه حتّى و لو ظهر الأمر خلاف ما هو عليه عند العلماء، و كما أراد الجاحظ إبرازه في كتاب الحيوان في قوله تحت عنوان "ما عجز عنه الإنسان ممّا قدر عليه الحيوان" « والقسمة الأخرى ما أودع صدور صفوف سائر الحيوان، من ضروب المعارف و فطرها عليه من غريب الهدايات و سخّر حناجرها له من ضروب النّغم الموزونة و الأصوات الملحنة و المخارج الشّجيّة و الأغاني المطربة، فقد يقال أنّ جميع أصواتها معدّلة...فبلغت بعفوها و بمقدار قوّة فطرتها من البديهيّة و الارتجال، ومن الابتداء و الاقتضاب، ما لا يقدر عليه حذاق رجال الرّأي... و ثمّ جعل الإنسان ذا العقل المتمكّن... و صاحب الفهم و المسابقة... متى أحسن شيئا كان كلّ شيء دونه في الغموض عليه أسهل و جعل سائر الحيوان و إن كان يحسّ أحدهما ما لا يحسن أحذق النّاس... فأحسنت هذه الأجناس بلا تعلّم ما يمتنع عن الإنسان و إن تعلّم...»[5] إنّ الإنسان و الحيوان هو اختلاف خلقي على اعتبار ما ذهب إليه الجاحظ و هو بتعبير نعوم تشومسكي كما رأينا اختلاف جيني، أمّا مجال تفوّق الحيوان على الإنسان كما ذكر الجاحظ هي أمر نسبي لا مجال

[1]- ميشال زكريا: الألسنية المبادئ و الأعلام، ص19-20.
[2]- ينظر عايدة حوشي: نظام التّواصل السيميولساني عند الجاحظ -حسب نظريّة بورس-، عن نعوم تشومسكي، محاولات حول الشّكل و المعنى، ص 81.
[3]- رومان جاكبسون، الاتجاهات الأساسيّة في علم اللّغة، ص83.
[4]- المرجع نفسه، ص 83-84.
[5]- الحيوان، ج1، ص5.

للمبالغة فيه، لأنّ مجال المقارنة لا يكون بالمقدرة بقدر ما يكون بالخصائص الّتي يختلف فيها صوت الحيوان عن الإنسان[1].

و يمكن ذكر الفرق بين لغة الإنسان و تصويت الحيوان باختصار في النّقاط التّالية:

1- الإدراك وطريقة استخدام الأصوات، فالحيوان تنتفي عنده صفات الإدراك عكس الإنسان الّذي يتميّز بهذه الصّفة ليس في أداء الأصوات و اللّغة وحسب بل أيضا في جميع أفعاله و ذلك لامتلاكه صفة العقل الّتي لا تتوفّر عند الحيوان، حتّى و إن قلنا أنّ عمليّة تكرار الأصوات عند الببغاء عن طريق المحاكاة هي عمليّة شبيهة بعمليّة التّكرار عند الطّفل و كيفيّة تعلّمه لكن يجب أن نشير إلى أنّ هذه الفترة الّتي يتماثل فيها تعلّم الطّفل بمحاكاة الببغاء وقتيّة فقط،أو هي مرحلة تمهيديّة فقط عند الطّفل تتطوّر بتطوّر النّمو العقلي لدى الطّفل عكس الحيوان.

2- الجانب الصّوتي:

يرى حلمي خليل بأنّ الجاحظ قد انطلق من قدرة الإنسان على البيان و الإتصال، فقد خصّ اللّفظ و البيان باللّسان، فالكلام لا يحدث عنده إلّا على ثلاث مراحل هي: الصّوت و التّقطيع و التّأليف[2] الأمر الّذي نجده عند مارتيني لأنّ الصّواتة هي دراسة الطريقة المبتكرة الّتي يستفيد بواسطتها كلّ إنسان من الموارد التّصويتيّة كي يؤمّن التّواصل بين مستخدميه، ومن بين الخيارات النّطقيّة كلّها تحتفظ الصّواتة بعدد معيّن منها قابل لتحقيق نتاجات تماثل جيّدا سمعيّا. إنّها تلك الخيارات الّتي يستخدمها المتكلّمون كي يميّزوا مختلف الأحداث المعنويّة بمقابلة بعضها مع بعض، و كي يثبتوا تباينات بين تلك الوحدات الّتي تتابع في السّلسلة الكلاميّة[3]، فإذا كان هذا مفهوم الصّواتة قد يكون تتابع سلسلة الأصوات عند الببغاء شبيها بالنّطق العام عند الإنسان لكنّ مهمّة هذا الجانب العلمي لا تختصّ سوى باللّسان البشري.

كما نجد مارتيني يضيف قائلا: « إنّ تفوّق الإنسان على الغراب يعزى إلى أنّ الإنسان قادر على الجمع بين صرختين مختلفتين و على تفريد واحدة من الأخرى أو الثّانية من الأولى و لا طائل في أمر ترتيبهما فهذا عائد إلى الألسن، و هذا ما نطلق عليه معاينة التّجربة، و بدون ريب فمعاينة التجربة هذه في نطاق ما هي أصليّة ربّما ستجعل الإتصال ملتبسا»[4]،لماذا؟ يجيب مارتيني: « فلنفترض أنّ غرابا أطلق صرختين بالتّتالي ليفرق الأولى عن الثّانية، هل تعتقد أنّ غرابا آخر سيفهم؟ لكي نفهم أن نوجد، إن صحّ القول، القاسم المشترك للصرختين الشّاعر هو الّذي يسعى للتّقريب بين صرختين، إنّه يدرج معا كلمات لم يعتد النّاس وضعها في سياق واحد خشية ألّا تفهم، إذا قرأتم قصيدة يجدر بكم أن تجهدوا أن تجهدوا أنفسكم قليلا لكي تتبيّنوا ما تتضمّنه التقريبات غير المتوقّعة»[5] وهو فرق فرق شاسع بين صرختين للغراب في مقابل صرختي الشّاعر، لأنّ مقدرة الإنسان الصّوتيّة

[1]- ينظر عايدة حوشي: نظام التّواصل السّيميولساني في كتاب الحيوان للجاحظ- حسب نظريّة بورس-، ص461.
[2]- حلمي خليل: دراسات في اللّغة و المعاجم، ص273.
[3]- أندري مارتيني:وظيفة الألسن و ديناميتها، ص 189.
[4]- أندري مارتيني: وظيفة الألسن و ديناميتها، ص41.
[5]- أندري مارتيني: وظيفة الألسن و ديناميّتها،ص41.

تتجاوز الوقوف على فونيم، بل تتعداه إلى مونيمات و كذلك مورفيمات، لأنّها ببساطة خاصيّة يقدّم بموجبها الإنسان معاني للأصوات؛ أي جعلها تحمل دلالة في سلسلة الكلام و عبر التّتابع وفق خصائصها المميّزة، أو بعبارة أخرى التّصويت عند الإنسان يكون لغاية اِيصاليّة و إبلاغيّة هامّة تؤكّد جدوى الصّوت، لا التغريد من أجل التّغريد كما هو الحال عند الغراب، فالشّكل المدرك في المونيمات عند الإنسان الضمانة لثبات الدّوال[1]، نفس الأمر نجده عند الجاحظ، فقد كان على وعي بأنّ صورة الصّوت تلفظ وحسب؛ أي التّصويت دون وعي بالدّلالة، لذا لن يكون ما يقطّعه الببغاء من أصوات و ألفظ ذا قيمة اِيصاليّة بالدّرجة نفسها عند الإنسان و إن ظهرت الجمل سليمة من جانب نطقي، يقول الجاحظ: « و كما سمّوا الببغاء بتقطيع الصّوت الّذي ظهر منه، و ليس عند الببغاء إلّا حكاية صور الأصوات»[2]

[1]-المرجع نفسه، ص42.
[2]- الحيوان ، ج7 ، ص104.

دراسة مقاربة بين الجاحظ و أندري مارتيني

1- دراسة مقاربة بين الجاحظ و أندري مارتيني:

لقد تشابهت الدّراسات العربيّة مع الدّراسات الغربيّة، خاصّة في الدّرس اللّغوي الحديث، الذي تناول عدّة قضايا قد تبدو لنا في الوهلة الأولى أنّها لم تدرس من قبل، و لكن الباحث في صميمها يكتشف أنّ العرب قد سبق لهم و أن أشاروا إليها، و إن لم يكن كدراسة خاصّة بها كما عرفناها عند اللّغويّين الغربيّين، و إنّما من خلال حديثهم عن اللّغة في حدّ ذاتها، أو فيما يخصّ الدّراسات التي مسّت القضايا الدّينيّة من تفسير القرآن بواسطة اللّغة.

و لقد لاحظنا أثنا حديثنا من خلال هذا البحث عند كلّ من الجاحظ و أندري مارتيني العديد من النّقاط المشتركة التي تجمعهما، و البعض الآخر التي يختلفان فيها، و ظهرت هذه النّقاط من خلال حديثنا عن بعض القضايا التي تمت بصلة إلى اللّغة، أو ما تبيّن لنا من طريقة نظرهم.

إذن، يمكن القول أنّ كل من الجاحظ و أندري مارتيني، و بالرّغم من اختلاف الزّمان و المكان و حتى الوسائل المتاحة لعملية البحث و دراسة اللّغة، إلا أنّه توجد نقطة تلتقي فيها الأفكار و تمتزج مع بعضها البعض، و من خلال ما يلي سوف نحاول إظهار هذه الآراء المشتركة بين اللّغويّين و كيف تحدّث كلّ منهما عنها، محاولين إعطاء لمحة و لو وجيزة عن أوجه التشابه و الاختلاف بين هاذين الباحثين.

لطالما أكّد أندري مارتيني في كتابه "مبادئ في اللّسانيات العامة" أنّ اللّغة بالدّرجة الأولى أداة للتّواصل، كما أكّد على أنّ وظيفة الإبلاغ تبقى الوظيفة المركزيّة للّغة، التي ينبغي التّأكيد عليها باعتبارها أوّل مقولات مارتيني التي تمكّن من التّواصل بين البشر، فقد رأينا في أكثر من موضع إقرار مارتيني حول وظيفة اللّغة بوصفها مؤسسة إنسانيّة رغم اختلاف بناها التي تتمحور حول الإبلاغ و التّفاهم و الاتّصال بين الأفراد.

نفس الأمر الذي يتّفق فيه مع الجاحظ، فهذا الأخير يرى اللّغة أيضا ظاهرة إنسانيّة اجتماعيّة وجدت أساسا للتّخاطب و التّواصل بين البشر، يستعملها الإنسان لإفهام الحاجة و البيان. لذلك اعتبر اللّفظ الذي يوازي اللّغة عنده أهمّ منازل التّعبير اللّغوي لأنّها تتيح الإفصاح عمّا هو مكنون في الصّدور الذي يظهر عن طريق الاستعمال.

هذا و بالإضافة إلى أنّ كلا من الجاحظ و مارتيني يريان أنّ للغة وظائف أخرى تؤدّيها غير الوظيفة الأساسيّة التي تمكّن الإنسان من التّواصل و الإبلاغ، و يعتبرانها وظائف ثانويّة.

أشار كلّ من الجاحظ و مارتيني إلى أهمّية التقطيع في تحقيق عمليّة التّبليغ، فالجاحظ يرى أنّ التقطيع هو استعمال واع للحروف لغاية التّبليغ، فلا تكون

الأصوات ذات فائدة بلاغيّة ما لم تخضع للتقطيع مثل الأصوات التي تصدرها الحيوانات و الأطفال خلال مراحلهم الأولى من تعلّمهم للّغة، فالتّقطيع خاصّية هامّة تساعد على فهم اللّسان البشري. و الأمر نفسه نجده عند مارتيني التي تشكّل خاصّية التقطيع المزدوج عنده إحدى أهمّ مبادئه، حيث يرى أنّ التقطيع يتيح تحليل الخبرة و التّجربة البشريّة إلى وحدات ذات مضمون دلالي و تعبير صوتي، كما يتّفقان على أنّ تحليل اللّسان البشري إلى أدنى مستوياته؛ أي إلى التقطيع الأوّلي الذي يفرز لنا الكلمات الدّالة، و التقطيع الثانوي الذي يعني به الوحدات الصّوتيّة الصّغرى غير الدّالة يُمكننا به معالجة بعض أمراض الكلام كالحبسة و اللّثغة و غيرها....

بالإضافة إلى كلّ هذا، نجدهما يتشاركان في فكرة عدم توفّر هذه الخاصّية في لغة الحيوان، فهما يريان أنّ جميع الكائنات بإمكانها إصدار مادة الصّوت، إلا أنّها لا تكون ذات فائدة بلاغيّة ما لم تخضع للتّقطيع.

إدراكهما أنّ للّغة نظاما فريدا من نوعه، حيث وجدنا أنّ الجاحظ في البيان و التّبيين تفطّن إلى أنّ اللّغة تسير وفق نظام لغوي يتميّز بأدوات إجرائيّة هامّة سواء في عملية التّواصل اللّغوي و غير اللّغوي بين المتكلّمين، و ذلك أثناء حديثه عن منازل التّعبير اللّغوي من لفظ و إشارة و عقد...، و في نفس السّياق نجد مارتيني كذلك يشير إلى أنّ اللّغة ملكة تستعمل للتّواصل و التّفاهم، التي تسير وفق نظام تحكمه مجموعة من الأدلّة الصّوتيّة و الإشارات، ويتّضح ذلك في تقديمه لمفهوم اللّغة و أثناء مراجعته له.

تعدد العلامة عند الجاحظ سواءً لغويّة كانت أم غير لغويّة، و قد بيّن أنّها تسير وفق علاقات تركيبيّة(أفقيّة) سماها بعلاقات التّأليف، التي تسمح بتركيب سلسلة من الوحدات في أحسن سبك و نظم، و علاقات ترابطيّة(عموديّة) سماها بعلاقات التّخيير تمكّن من اختيار الألفاظ لإخراجها في أحسن تركيب. فقد وجدناه في كلّ مرّة يلحّ على الدّور الذي تلعبه هذه العلاقات في نسج نصّ له دلالة إبلاغيّة واضحة، نفس الأمر تعرّض إليه مارتيني كون النّظام يقوم أساسا على العلاقات الدّاخليّة بين الكلمات، هذه الأخيرة التي يجسّدها المحوران السابقان.

اتفاقهما على أنّ اللّفظ هو أكثر نفعا و بيانا في التّبليغ و التّواصل من منازل التّعبير الأخرى، فالجاحظ يرى أنّ ميزة الإنسان هي قدرته على الكلام و الإبانة عن نفسه بالألفاظ، هذه التي تتيح التّعبير بشكل واضح لا تتيحه أي وسيلة تعبير أخرى، و يؤكّد ذلك بقوله أنّ الصّوت هو كلّ شيء في الإنسان بل هو الإنسان نفسه، كما نجد مارتيني هو الآخر يؤكّد ذلك فهو يرى أنّ وظيفة التّواصل و الإبلاغ تتجسّد بشكل أفضل بالاستعانة بالتّعبير اللّغوي بالدّرجة الأولى.

و كذا اتفاقهما على مل يوفّره مبدأ الاقتصاد اللّغوي من إيصال قدر كبير من المعلومات بأقل جهد ممكن سواء كان بدنيا أو ذهنيا، و يتّضح هذا عند الجاحظ في

إشارته إلى أنّ أبلغ النّاس من أوصل المعنى في أقلّ جهد من الألفاظ، و عند مارتيني من خلال ما تتيحه خاصيّة التقطيع المزدوج من اقتصاد.

تقارب مفهوما اللّفظ و المعنى عند الجاحظ بمفهوميّ الدّال و المدلول عند مارتيني، حيث يمثّل اللّفظ عند الجاحظ الثّوب الجميل الذي يخرج به المعنى، نفس الأمر لدى مارتيني الذي يرى أنّ الدّال هو الأداء و التّجسيد الفعلي للمدلول.

كما نجد مارتيني يصف الصّوامت و الصّوائت، كما قام بتقسيمها و تصنيفها، في حين لم يتطرّق الجاحظ للحديث عن ذلك.

اتفاقهما على أسبقيّة المنطوق على المكتوب، كون الأوّل هو التّجسيد الفعلي للّغة و كذلك لأنّنا ننطق بالألسن قبل كتابتها كما سبق و أشرنا، في حين يمثّل الثّاني تقييدا لها، إلا أنّهما بهذا التّفضيل للمنطوق على المكتوب لم يُنقصا من قيمة المكتوب كونه الوسيلة الأنسب لتحقيق عمليّة التواصل على مدى طويل بين الأجيال.

اتفاقهما على مفهوم الوظيفة الحرفيّة، و تمايز الأصوات و دورها في تحديد وجهة العبارة و التّمييز بين وظائف وحداتها، حيث تعدّ الوظيفة التّمييزيّة للأصوات أحد أهم مبادئ مارتيني اللّسانيّة التي يرى أنها تمكن السّامع من معرفة أن لفظة معيّنة قد نطق بها المتكلّم عوضا عن لفظة أخرى لاختيار أصوات تميّز تلك اللّفظة على الألفاظ الأخرى، الأمر الذي يجعلها تؤدي وظيفتها التّمييزيّة عن غيرها من الوحدات، و تتّضح هذه الخاصّية لدى الجاحظ عند حديثه عن عيوب الخطاب الصّوتي، ففيه وضّح الوظيفة الحرفيّة و ما تؤدّيه الأصوات من تمايز و اختلاف في المعنى.

تعريف مارتيني للصّوت انطلاقا من أهم أعضاء الجهاز النّطقي(الوتران الصّوتيان) في حين عرّفه الجاحظ على أنّه آلة اللّفظ و أنّه صفة تتّصل باللّسان و تتيح القدرة على النّطق السّليم.

ذكر مارتيني مخارج الحروف بصورة دقيقة إضافة إلى مخارج الهواء بالشّرح المفصّل، أما الجاحظ اكتفى بذكر مخرج ثلاثة حروف فقط (الميم، الباء و الضاد) كما اكتفى بالتّلميح فقط لمخارج الهواء، و ذكر أنّها من المنخرين بدفع البخار من الجوف.

وصف الجاحظ لتطوّر المخرج عند الصّبي حدّ بلوغه وصفا دقيقا، في حين اكتفى مارتيني بذكر المخارج بصفة دقيقة و مُفصلة عند الإنسان عامة دون تحديد الفئة.

إسهاب الجاحظ في ذكر العيوب التي قد تُصيب الخطاب اللّغوي والتي قد تُعيق عملية الإبلاغ و الإفهام سواء عند الشخص البالغ أو الصبي، كاللّثغة و الفأفأة... وغيرها كثير، في حين اكتفى مارتيني بذكر ثلاث شوائب و انحرافات عند الصّبي (الثغثغة، المصاداة و القرقرة) التي تظهر خلال إنتاجاته اللّغوية الأولى.

اتفاقهما على كون اللّغة الإنسانية ذات طبيعة خاصة تتميز بطبيعة الإنسان العقلية و الإدراكية، و هو الأمر الذي تختلف فيه عن لغة الحيوان التي تنتفي فيها صفة الإدراك أثناء عملية التواصل الحيواني، بالإضافة إلى انعدام صفة التقطيع اللّغوي في لغة الحيوان، كون المدلول عنده لا يكون بالمعنى الذي يُدرك من خلاله في اللّغة الإنسانية.

اعتبار مارتيني لكلٍّ من النّبر و التنغيم دور هام في تغيير معنى الوحدات اللّغوية داخل التركيب، حيث يؤديان وظائف تمييزية بالنسبة للوحدات الموجودة في نفس القول أو في اللّسان الواحد و ذلك عند الاستفهام و التوكيد و التقرير... في حين نجد أن الجاحظ يرى أن النبر و الإيقاع لهما الأثر البالغ في تحقيق التناسق و التنافر بين الوحدات اللّغوية.

إشارة كليهما إلى أن القواعد و القوانين و الأصوات و التراكيب النحوية، تختلف باختلاف الألسنة البشرية حيث أنها لا تسير على نظام واحد في بناء جملها و تراكيبها.

اتفاقهما على نفس المفهوم للّغة الأم، على أنها اللّغة المكتسبة التي يتحدّثها الشخص منذ ولادته بإتقان و يكتسبها من محيطه. و اختلافهما في مفهوم اللّغة الثانية و ذلك في معيار درجة الإتقان. فالجاحظ يرى أنها اللّغة التي يتكلّمها الشخص بدرجة إتقان أقل من اللّغة الأم، في حين يراها مارتيني أنها اللّغة التي يتحدّثها بنفس درجة الإتقان مع اللّغة الأم.
إضافة إلى إشارة مارتيني لمفهوم أحاديو اللّسان، في حين لا نجد له إشارة عند الجاحظ.

اتفاقهما على أن وظيفة السمع في العملية التواصليّة، صوتيا يقابله البصر في النص المكتوب، بوصفها عملية تؤكد خصائص الاتصال الفعلي حيث تقتضي الأولى الاقتراب من الصوت في حين الثانية تقتضي ابتعاد عن الصورة.

يرى مارتيني أنه من الضروري القيام بالدّراسة الفونولوجية كمرحلة أولية لوصف أية لغة من اللّغات على اختلافها، و لذلك فهو يُحدد بدقة متناهية صفات و مخارج الحروف لأنها السّبيل الأمثل لتشخيص الصّفات الصّوتية التفاضلية و ضبط مختلف التنوعات الفونولوجية، نفس الأمر نجده عند الجاحظ الذي خصّ اهتماما

كبيرا لدراسة الأصوات اللّغوية و تنوّعها من لسان إلى آخر خلال أدائها للحاجات الفرديّة و الجماعيّة للجماعات المتكلّمين بها.

اتفاقهما على قدرة الإنسان على تقليد و محاكاة ألسنة و لُغات أخرى غير التي يتكلّمها، حيث يذكر الجاحظ الحاكية من الناس الذي باستطاعته الكلام لغة اليمن لدُربته على مخارج كلامهم، و تقريبا نفس المثال يضربه مارتيني الذي يرى أن الفرنسي من السّهل عليه التّعود على مخارج اللّغة الانجليزية و يصبح متحدثا بها بشكل حسن يصعب تمييزه عن الانجليزي القُحّ.

إذن، نستطيع القول من خلال البيان و التّبيين أن للجاحظ نظاما فكريّا يكشف عن الروح العلميّة و الموضوعية الدّقيقة التي تحلّى بها، فحديثه عن مختلف الأفكار اللّغوية الواردة في كتابه تثبت أنّ له فضل السبق للإشارة إلى ما هو وارد في الدّراسات الحديثة، و إن أمكننا القول أنّ معظم هذه الأفكار اللّغوية تمثّل إرهاصا لما قدمه مارتيني في أطروحاته الواردة في كتابه "مبادئ في اللّسانيات العامة".

خاتمة

خاتمة:

من خلال هذه الدّراسة ثبتنا إلى تجلّي الفكر اللّغوي عند الجاحظ بوضوح في كتاب البيان و التّبيين، و كذا خلصنا إلى تقاطع أفكاره و تطابقها في أكثر من موضع مع أندري مارتيني.

و في الأخير، نأمل أن نكون قد وفّقنا في بحثنا هذا الذي أردنا من خلاله القول بأنّ التّراث العربي الإسلامي يحمل كنوزا تضاهي ما أنتجه الفكر الغربي، فهي تحتاج إلى من يضعها في إطارها الفكري الذي أنتجت فيه، حتى يتمكّن الدّارس من عمليّة الرّبط المنهجي بين هذا التّراث و المناهج الغربيّة الحديثة، و بالتالي الحفاظ على قيمة التّراث العربي الإسلامي، الذي يعتبر البيان و التّبيين جزء لا يتجزأ منه، و الجاحظ من اللذين صنعوا هذا التّراث المتميّز تميّز علمائه.

و هكذا يمكننا القول و دون مبالغة بأنّ الجاحظ يعتبر رائد من روّاد الدّرس اللّغوي الأوائل، الذي يضاهي أندري مارتيني في أفكاره و أطروحاته.

قائمة المصادر و المراجع

المصادر و المراجع

المصادر:

1) القرآن الكريم
2) الجاحظ(أبو عثمان بن بحر): البيان و التّبيين، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، من ج1إلى ج4، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط7، 1998.
3) الجاحظ(أبو عثمان بن بحر): الحيوان، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، ج1،ج2،ج7، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط3، 1969.
4) ابن جني(أبو الفتح عثمان): الخصائص، تحقيق: عبد الحكيم بن محمّد، ج1، المكتبة التوفيقيّة، 1418ه.
5) الجوهري(إسماعيل بن حمّاد): الصّحاح في اللّغة و العلوم، تقديم: عبد الله العلايلي، ج2، دار الحضانة العربيّة، ط1، بيروت، 1974.
6) الحموي (ياقوت): معجم الأدباء، ج6، دار الفكر للطّباعة و النّشر، 1980.
7) داوود(محمّد داوود): المعجم الوسيط و استدراكات المستشرقين، دار غريب للطّباعة، ط1، مصر، 2006.
8) الرّازي(أبو بكر): مختار الصّحاح، المكتبة العصريّة، بيروت لبنان، 2003.
9) ابن سنان الخفّاجي(عبد الله بن محمّد بن سعيد): سرّ الفصاحة، ج1.
10) سيبويه(عمرو بن عثمان بن قنبر): الكتاب، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، 1982.
11) ابن فارس(أبو الحسين أحمد): مقاييس اللّغة، تحقيق و ضبط: عبد السّلام محمّد هارون، ج4، دار الجيل، ط2.
12) الفيروز أبادي(مجد الدّين): القاموس المحيط، م1، ج4، دار الكتب العلميّة، ط5، بيروت لبنان، 1995.
13) ابن منظور(أبو الفضل محمّد بن مكرم): لسان العرب، دار صادر، (ط1-1993، ط3-1994)، بيروت لبنان.

المراجع:

14) أمين(أحمد): فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، ط11، بيروت، 1978.
15) أنيس(إبراهيم): دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصريّة، 1997.
16) أنيس(إبراهيم): الأصوات اللّغويّة، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، 1995.
17) أيوب(عبد الرّحمان): أصوات اللّغة، القاهرة، 1968.
18) برهومة(عيسى عودة): تمثلات اللّغة و المجتمع في البيان و التّبيين، الجامعة الهاشميّة، الأردن.

19) بلّمليح(إدريس): الرّؤية البيانيّة عند الجاحظ، دار الثّقافة، الدار البيضاء المغرب، 1984م.
20) بنّاني(محمّد الصّغير): النّظريات اللّسانيّة و البلاغيّة و الأدبيّة عند الجاحظ من خلال البيان و التّبيين، ديوان المطبوعات الجامعيّة، ط1994.
21) بوقرّة(نعمان): المدارس اللّسانيّة المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، 2004م.
22) بوملحم(علي): المناحي الفلسفيّة عند الجاحظ، دار الطّليعة للطّباعة و النّشر، بيروت.
23) بيرلا(شارل): الجاحظ في البصرة و بغداد و سمرّاء، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، ديوان المطبوعات الجامعيّة، ط1، الجزائر، 1985.
24) جاكبسون(رومان): الإتّجاهات الأساسيّة في علم اللّغة، ترجمة: علي حاكم صالح و حسن ناظم، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء المغرب، بيروت لبنان، ط1، 2002.
25) حسام الدّين(كريم زكي): أصول تراثيّة في اللّسانيات الحديثة، ط3، 2001.
26) حساني(أحمد): مباحث في اللّسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية، السّاحة المركزيّة، بن عكنون الجزائر، 1994.
27) حمداوي(جميل): التّواصل في اللّغة و التّواصل التّربوي و الثّقافي مقاربات نفسيّة و تربويّة، ط1، 2008.
28) حمودة(عبد الفريد): المرايا المقعّرة، مطابع الوطن، الكويت، 2001.
29) دبّة(الطيّب): مبادئ في اللّسانيات البنويّة دراسة تحليليّة ابستيمولوجية.
30) دي سوسير(فردناند): محاضرات في الألسنيّة العامّة، تحقيق: صالح قرمادي و محمّد الشّاوش و محمّد العجينة، الدّار العربيّة للكتاب، 1985.
31) راضي(عبد الحكيم): الأبعاد الكلاميّة و الفلسفيّة في الفكر البلاغي و النّقدي عند الجاحظ، مكتبة الآداب، القاهرة.
32) رايص(نور الدّين): اللّسانيات المعاصرة في ضوء نظرية التّواصل، عالم الكتب الحديث، ط1، المغرب.
33) زركلّي(خير الدّين): الأعلام، ج5، دار العلم للملايين، ط9، بيروت لبنان.
34) زكريا(ميشال): بحوث ألسنيّة عربيّة، المؤسسة الجامعيّة للدراسات و النّشر و التّوزيع، ط1، بيروت، 1992.
35) زكريا(ميشال): الألسنية مبادئ و أعلام، المؤسسة الجامعيّة للدّراسات و النّشر و التّوزيع، ط2، 1993.
36) السّعران(محمود): علم اللّغة، دار النّهضة العربيّة للطّباعة و النّشر بيروت.
37) الشّايب(فوزي): محاضرات في اللّسانيات، منشورات وزارة الثّقافة، الأردن، 2004.

38) طالب(الإبراهيمي خولة): مبادئ في اللّسانيات دار القصبة للنّشر، الجزائر، 2000.
39) عبد الجليل(عبد القادر): علم الصّرف الصّوتي، دار صفاء للنّشر و التّوزيع، ط1، عمان، 2010.
40) العذامي(عبد الله): الخطيئة و التّفكير(من البنويّة إلى التّشريحيّة)، النّادي الأدبي، 1987.
41) عزّالدّين(إسماعيل): المصادر الأدبيّة و اللّغويّة في التّراث العربي، دار النّهضة العربيّة للطّباعة و النّشر.
42) عطيّة(سليمان أحمد): الجاحظ و الدّراسات اللّغويّة، مكتبة زهراء الشرق، 1984.
43) العقل ناصر(عبد الكريم): مقدّمات في الأهواء و الافتراق و البدع، دار الوطن، ط3، 1471ه.
44) العلوي(شفيقة): محاضرات في المدارس اللّسانيّة المعاصرة، ط1، بيروت، 2004.
45) غريب(جورج): الجاحظ دراسة عامّة، دار الثّقافة، بيروت لبنان، 1998.
46) الفارغ(شحذة و آخرون): مقدّمة في اللّغويات المعاصرة، دار وائل للنّشر و التّوزيع، ط5، 2002.
47) الفاخوري(حنا): الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجبل، بيروت لبنان.
48) القزاز(محمّد سعد): الفكر التّربوي في كتابات الجاحظ، دار الفكر العربي، ط1، مصر.
49) كرديّة(هيام): الألسنيّة رواد و أعلام، ط1، بيروت لبنان.
50) مارتيني(أندري): مبادئ في اللّسانيات العامّة، ترجمة: سعدي زبير، دار الآفاق.
51) مارتيني(أندري): وظيفة الألسن و ديناميّتها، ترجمة: نادر سرّاج، دار المنتخب العربي، ط1، 1996، بيروت.
52) المراغي(أحمد مصطفى): علوم البلاغة، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، 2002.
53) مرتاض(عبد الجليل): اللّغة و التّواصل، دار هومة الجزائر،2003.
54) مومن(أحمد): اللّسانيات النّشأة و التّطوّر، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 2002.
55) ناصف(مصطفى): اللّغة و التّفسير و التّواصل، عالم المعرفة، 1995.

المراجع بالأجنبيّة

56) MARTINET Andrét : Elément de linguistique générale, Armand colin
57) DUBOIS Jean et autre, Dictionnaire de linguistique, librairie Larousse, Paris .

الأطروحات و الدّوريات:

58) بروال(مختار): الكفاءة التّواصليّة في الإدارة المدرسيّة، أطروحة لنيل شهادة الماجستير في اللّغة و الأدب العربي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2009/2008.
59) بن زروق(نصر الدّين): محاضرة 3 في مادة اللّسانيات العامّة، المدرسة العليا لتكوين الأساتذة في الآداب و العلوم الإنسانيّة بوزرّيعة، 2006/2005.
60) حوشي(عايدة): نظام التّواصل السّيميولساني في كتاب الحيوان-حسب نظريّة بورس-، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللّغة و الأدب العربي، جامعة فرحات عباس، سطيف.
61) علّيك(كايسة): المرجعيّة اللّسانيّة للمقاربة التّواصليّة في تعليم اللّغات و تعلّمها، أطروحة دكتوراه، جامعة مولود معمري تيزي وزو، 18-11-2015.

الفهرس

مقدمة

الفصل الأول: الجاحظ و بعض المعارف و المفاهيم اللغّويّة.....05

I- حياة الجاحظ و مؤلّفاته.....05
1- نبذة عن حياة الجاحظ.....05
2- كتاب البيان و التّبيين.....06

2-1- محتواه.....06

2-2- لغة و أسلوب الجاحظ فيه.....07

3- تاريخ و دوافع تأليف البيان و التّبيين.....08
4- مفهوم البيان و التّبيين عند الجاحظ.....10

II- مذهب الجاحظ و مجمل آرائه.....14
1- الفكر الاعتزالي 14
2- الاعتزاليّة الجاحظيّة.....15

III- الآراء و المفاهيم اللّغويّة عند الجاحظ.....17
1- نظريّة الكلام.....17
1-1- عمليّة الكلام في إطارها اللّغوي.....17
1-2- منازل التّعبير اللّغوي.....19
2- اللّفظ و المعنى.....26
3- حدّ اللّغة.....28

الفصل الثاني: أهم المبادئ اللّسانيّة عند أندري مارتيني.....39

I- أندري مارتيني و البحث اللّساني.....39
1- نبذة عن حياة أندري مارتيني.....39
2- المدرسة الوظيفيّة.....41
3- مفهوم الوظيفة لغة/ اصطلاحا.....43
4- مفهوم اللّغة لغة/ اصطلاحا.....44

II- مبادئ الدراسة الوظيفيّة عند مارتيني.....47
1- وظيفة اللّغة.....47

2- التّقطيع المزدوج.....47
3- مبدأ الاقتصاد اللّغوي.....50
4- مبدأ الفضيلة.....50
5- مفهوم الجملة.....51
III- مبادئ التحليل الوظيفي عند مارتيني.....52
1- على مستوى الكلمة:.....52
1-1- العلاقات القائمة بين الوحدات.....52
1-2- موضع الوحدات.....52
1-3- المحتوى الدلالي للوحدات.....52
1-3-1- الوحدات اللّغويّة من حيث أنّها مونيمات.....52
1-3-2- الوحدات اللّغويّة من حيث أنّها تراكيب.....53
2- على مستوى الجملة.....55
3-أنواع الوحدات التّركيبيّة.....56

الفصل الثّالث: الدّرس الصّوتي عند كلّ من الجاحظ و أندري مارتيني.....58

I- الدّرس الصّوتي عند الجاحظ.....58
1- مفهوم الصّوت لغة/ اصطلاحا.....58
2- أنواع الأصوات اللّغويّة.....59
3- مخارج الأصوات.....61
4- عيوب الصّوت النّطقي.....63
5- أنواع عيوب الخطاب الصّوتي.....64
6- الانسجام و التّنافر بين الأصوات.....69
7- تأثير اللّغة الأم في اللّغة الثانية.....70
8- بين الصّوت و اللّفظ.....71
II- الفونولوجيا عند أندري مارتيني.....72
1- فونولوجيا براغ.....72
2- مبادئ مدرسة براغ.....72
3- نظريّة مارتيني الفونولوجيّة.....73
4- الصّوتيات.....74
5- مفهوم الفونيم و المونيم 76
6- كيف يحدث الصّوت الإنساني.....76
7- أعضاء النّطق و دور كلّ منها في إنتاج الكلام.....77
8- تصنيف الأصوات اللّغويّة.....79

9- مخارج الأصوات اللّغويّة.....79
10- صفات الأصوات.....80
11- التّنغيم و النّبر.....82
12- الصّوامت و الصّوائت.....84
13- عيوب النّطق حسب مارتيني.....85
14- اللّسان المكتوب و اللّسان المنطوق.....86
15- اللّسان الأم، مزدوجو اللّسان و أحاديو اللّسان.....86

III- التواصل اللّغوي عند الإنسان.....88
1- مفهوم التّواصل لغة/ اصطلاحا.....88
2- التواصل اللّغوي عند الإنسان و معه.....89
3- التواصل اللّغوي عند الحيوان و معه.....91
IV- دراسة مقاربة بين الجاحظ و أندري مارتيني.....95
1- دراسة مقاربة بين الجاحظ و أندري مارتيني.....96
خاتمة.....102
قائمة المصادر و المراجع.....104
الفهرس.....109